58

أحمد عبد الرحيم مصطفى

ماجستير فى الآداب

ومعيد بكلية الآداب - جامعة ابراهيم

توفيق الحكيم

أفكاره . آثاره

المطبعة النموذجية

٦ حارة اليازورى بالحلمية الجديدة

2271
.255
.831

2271.255.831
Mustafa
Tawfiq al-Hakim

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
MAR 1	MAR 29 '65		
MAR [illegible]	JUN 2 1 '66		
NOV [illegible]	DEC 20 '68		
JAN 6	FEB 3 - '69		
FEB 5	MAR 5 - '69		
MAR 6	APR 3 - '69		
NOV 2 [illegible]	DEC 2 [illegible]		
FEB 14	MAR 13 '72		

Princeton University Library
32101 072539206

Mustafā, Ahmad ʿAbd al-Rahīm
...

أحمد عبد الرحيم مصطفى

ماجستير فى الآداب
ومعيد بكلية الآداب ـ جامعة ابراهيم

Tawfīq al-Hakīm

توفيق الحكيم

أفكاره ـ آثاره

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

[illegible]

الاهداء:

إلى الشموع التى تحترق . . . . لتنير لغيرها الطريق

إلى القلة التى استهوتها المثل . . . . فلم يجرفها التيار

إلى الذين سبقوا عصرهم . . . . فعاشوا أغرابا

. . . . . .

إلى الأمل الذى لايفنى

إلى الألم الذى يلهب فيرفع

. . . . . .

إلى المثل الأعلى

2271
.255
831

هذا كتاب عن « توفيق الحكيم » بنى على الدراسة الشاملة لآرائه وأثاره .

وقد حاولت فى عرضى له ولإنتاجه ومركزه بين قادة فكرنا الحديث ، أن أحيطه بعالمه ومجتمعه ، حتى تسهل عملية الربط بين المؤثر والمتأثر . فقد أصبح جليا — على ضوء علم النفس الحديث — أن هنالك تجاوبا بين الفرد وبيئته — تجاوبا يزداد قوة وضعفا بحسب درجة فاعلية الأثر وحساسية المتأثر .

وآثرت فى هذا البحث أن أضع الأفكار والآراء بنصها . ولم أشأ أن « أترجمها » ؛ حتى تخرج الى القارىء مطابقة لأصولها ، وحتى يمكن لى — عن طريق هذا المنهج — أن أقدم المترجم له إلى القراء خلال نماذج مختلفة من أسلوبه وأفكاره . فعساى بذلك أن أكون قد وضعت الصورة — التى أبغى عرضها — فى إطارها العام .

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أشكر حضرة الأستاذ الدكتور مهدى علام أستاذ الأدب بكلية الآداب بجامعة إبراهيم لتفضله بمراجعة هذا البحث ، ووضع مقدمة له . فله منا وافر الثناء وجميل التقدير .

أحمد عبد الرحيم مصطفى

القاهرة فى ٦ غسطس ١٩٥٢

مقدمة

بقلم حضرة الأستاذ الدكتور مهدى علام
وكيل كلية الآداب — جامعة ابراهيم

فى هذه الفصول دراسة تاريخية لعصر توفيق الحكيم وأفكاره، تدل على أن كاتبها قد عاش حقبة طويلة مع الكاتب القصصى العظيم، فعرف عنه وعن عصره وأفكاره المهاد أو الصورة الخلفية التى بدأ منها، وتطوره فى مراحل تفكيره، ووصل به إلى آخر كتبه التى أخرجها حتى اليوم. ولو شاء لاطلع على أصول كتابه الذى أراه معلنا اليوم فى الصحف عن «المرأة الجديدة» ليستكمل به الفصل الذى كتبه عن رأى توفيق الحكيم فى المرأة.

وأمتع ما فى هذا الكتاب الفصل الذى تناول فيه المؤلف عصر الحكيم، فقد عرض فيه عرضا فنيا تاريخيا للعوامل التى تفاعلت فى حياة الأدب العربى حتى وصلت إلى يد الكاتب القصاص، ثم أبان ما استحدثه كاتبنا العظيم فى هذه الحياة الأدبية الزاخرة. ولست أوافق على جميع المقدمات التى بنى عليها المؤلف نتائجه، ولا على جميع النتائج التى انتهى إليها. ولكن ذلك لا يحول بينى وبين أن أقرر أنه بذل جهدا جليلا مثيرا للتفكير فى ناحية ما زلنا فى أشد الحاجة إلى الكتابة فيها فتوفيق الحكيم وفنه قد حظيا بالتقدير الرسمى والشعبى ولكنهما مع ذلك ما زالا فى احتياج إلى التقدير الدراسى. فالكتاب والعلماء يتهيبون الكتابة عن الأحياء كتابة علمية مستفيضة، مكتفين بالمقالة السائرة،

أو المحاضرة العابرة . ومازال كثير من زملائى فى الجامعات المصرية يحاولون أن يثنونى عن اتخاذ الكتاب والشعراء الأحياء موضوعات لرسائل البحوث للماجستير والدكتوراه . كأنما يجب أن يموت الكاتب أو الشاعر قبل أن يصبح أهلا للدراسة الجامعية المستفيضة . وهم يبنون إحجامهم على عدة اعتبارات : منها أن العلاقات الشخصية القائمة بين الكتاب والشعراء من جهة ، والذين يتناولونهم بالدرس من جهة أخرى ، قد تكون عائقا عن تسطير مايرضى الأدب والتاريخ، محاباة أحيانا ، أو تحاملا أحياناً أخرى . ومنها أن بعض الكتاب والشعراء ربما لايرتاحون إلى الأحكام الصادقة التى قد تصدر على آثارهم الفنية من محيط الجامعات. ومنها أن الكاتب أو الشاعر - قبل أن يودع الحياة - لايكون قد اكتمل . وفى تناول آثاره قبل أن يكون قد فرغ منها كلها مايستلزم نقصا فى الحكم الذى يصدر فى شأن فنه .

وأنا أرى أن « الموضوعية » التى يفرضها البحث الجامعى يجب أن تكون حماية للأساتذة وطلابهم الباحثين ، وبذلك لايتأثرون بعلاقاتهم الشخصية ، بل ينبغى أن يكون فى ذلك أعظم تدريب للطلاب الباحثين على النزاهة العلمية فى البحث . كذلك ينبغى أن ندرك أن رسالة المؤرخين للأدب فى الجامعات تتضمن رياضة المنتجين للأدب فى البلاد على قبول الأحكام العلمية عنهم وعن آثارهم الفنية ، ففى ذلك سبيل التقدم الذى ينشده النقد الأدبى الناضج . أما عدم اكتمال الآثار الأدبية للكاتب أو الشاعر الحى ، فأمر جدير بكل اعتبار . ولذلك أميز بين الكاتب الذى كتب كتابين أو ثلاثة كتب والكاتب

الذى كتب عشرين أو ثلاثين كتابا ، والشاعر الذى نشر ديوانا أو ديوانين ، والشاعر الذى نشر مئات القصائد. وبعبارة أخرى : هناك من الأدباء الأحياء من يمكن اعتباره صاحب مذهب قائم فى فنه ، قد أثبته القدر الكافى من آثاره الفنية . ومن غير المحتمل أن يعدل فيما يكتب بعد ذلك بما يهدم ما أسسه لنفسه من فن .

قلت إننى لا أوافق على كل ما جاء فى هذا الكتاب ، وليس لى ولا لمؤلفه أن يطمع فى أن يوافق كل قارئ على ما جاء فيه . ولكن هناك أمورا أرى أنه ينبغى أن يكون عليها اتفاق عام . فمثلا للمؤلف أن يرضى عن شعر الجارم أو يضيق به صدرا ، فهذه مسألة ذوق ، آخر الأمر . ولكن الذى أخالفه فيه أن يقول عنه : « ومن هؤلاء على الجارم الذى كان يتوخى التقاط الغريب من الألفاظ والمجلجل من الوزن . » فليس فى هذا إنصاف للحقيقة . فمع أن المقدمة التى كان يتكلم فيها المؤلف من أن هذا الاتجاه كان سائدا مقدمة مسلم بها ، ليس الجارم أقوى مثال له . ولو قال محمد عبد المطلب مثلا لكان أقرب إلى الصواب .

كذلك أنحى المؤلف باللائمة على البارودى فقال إنه التزم أساليب ديوان الحماسة . وهذه حقيقة لا ننكرها ، ولكنها لا تبرر ما يرمى به المؤلف البارودى بالجمود دون التجديد فالبارودى الذى عده المؤرخون مجددا فى الشعر العربى لم ينظر إليه على أنه مستحدث لما يسبق إليه ، وإنما كانت رسالته أن يحيى الشعر العربى القديم وأن يرفعه عن مذلة الخنوع والتهلهل التى هوى

إليها فى عصر المماليك . فالبارودى — وإن لم يجدد — قد أحيا التراث القديم فى صورة حديثة كانت درجا قويا فى سلم الشعر الحديث .

وقد غمط المؤلف المنفلوطى فى تجديد النثر . فنحن لانستطيع أن نوافقه على دعواه أن « هذا الأسلوب الذى كان فى عصر المنفلوطى آية من آيات البلاغة لايخرج فى وقتنا الحاضر عن موضوع من موضوعات الإنشاء التى يضعها تلاميذ المدارس الثانوية .» ولو أن تلاميذ المدارس الثانوية تحللون موضوعاتهم ، ويعبرون عن أفكارهم ، كما فعل المنفلوطى فى الموضوع الذى اقتبسه المؤلف وعلق عليه بهذا التعليق ، لكانوا فى غنى عن مدرسيهم ، ولكان حال اللغة والأدب وبيننا الآن حالا سعيدا حقا .

ويعيب المؤلف على الشعر العربى القديم التزامه « لتلك البحور والقوافى التى تحصر فكر الشاعر فى قالب يحد من انطلاقه » . ولست أريد أن أناقشه فى أثر وحدة القافية ، مع ما اتسعت له القافية العربية من أفكار على ألسنة فحول الشعراء ، ولكن الذى ينبغى أن يعلمه المجددون - ولست أريد بذلك أن أقف حجر عثرة فى سبيلهم - هو أن بحور الشعر العربى القديم من الكثرة والمغايرة بحيث تغنى كل ذوق ، وتشبع كل غرض .

وحسبنا أن نذكر أن البحور التقليدية ، بما لها من أضرب ، تصل إلى أربعة وستين وزنا . ولا نشك فى أن فى هذا العدد ما يكفى من لا يريد أن يتبرع بالعيب فى الاوزان القديمة لمجرد أننا ورثناها لقمة سائغة .

ومن أهم ما عرض له المؤلف فى هذا الكتاب ما كتبه عن رأى توفيق الحكيم

فى رسالة الأدب . فقد تساءل المؤلف : هل للأدب أن يخدم أغراضا أخلاقية واجتماعية ؟ أم يقتصر على المتعة الفنية وحدها ؟ ثم يجيب بأن توفيق الحكيم يناصر قصر الفن على المتعة الفنية . ويستشهد على ذلك بقول الحكيم : « فلا أتصور فنا لا يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة ، ولا يبرز القبح كما يبرز الحسن ؛ وإن الدين أيضا فى تنزيله يصور لنا رجس المشركين ، وإثم الكافرين ، وقبح الأشرار والمفسدين ، كما يبرز لنا فضل المؤمنين ، وإحسان المحسنين . . . ولكن المقصود ليس حرية التصوير ... فهذه مكفولة فى الفن ، ملحوظة فى الدين . . . إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذى ينقله الفن والدين فى النفوس . »

وهذا الموضوع غير واضح فى أذهان كثير من الكتاب ، فوصف الرذيلة ، وتصوير القبح ، قد يكون درسا أخلاقيا ، وقد يكون فنا مجردا . فاذا كان مرمى التصوير هو تقبيح الرذيلة ، كان وعظا وإرشادا (مع بقائه فنا من فنون الأدب) . وإذا كان التصوير لا ينظر إلى الحض أو التحذير كان أدبا مجردا . فالاستشهاد بأن القرآن الكريم قد صور رجس المشركين ، وإثم الكافرين ، وقبح الأشرار والمفسدين ، لا ينهض دليلا على أن رسالة الأدب هى ألا يخدم أغراضا أخلاقية . بل هو على العكس من ذلك يؤيد أن الأدب قد يخدم أغراضا أخلاقية

على أن توفيق الحكيم أشد وضوحا وأقوى حجة على التدليل على مذهبه عندما يقول فى موضع آخر : « لا ينبغى أن نملى على الفن اتجاها بعينه ، ولا

يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الإصلاح الوقور . . . إلا أن يشاء هو ويرضى . » هذا رأى واضح لمذهب يرتضيه توفيق الحكيم ، وله أن يعتنقه وأن يدعو إليه ، فلا كان فن ، ولا كان أدب لا يشعر صاحبه بحريته . ولكن نفس هذه الحرية هى التى تخولنا أن نخالفه فى فهم فن الأدب — فى فهم الفن فى صورة أدب — فليس يضيره ، بل مما يرفع قدره ، أن تكون له أحيانا رسالة إصلاحية . أفلا يسمى ما كتبه إبسون ، وبرناردشو ، و هـ . ج . ولز مثلا أدبا ؟

ومع ذلك فالمؤلف يقرر أن توفيق الحكيم : « يعزو تأخر حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر حتى اليوم إلى تقصير الكتاب والأدباء . . . . فلم يكن الأدب فى مصر أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقا توقظ النائمين . ولكنها كانت معازف ينعس على أنغامها المترفون . أما هو فقد كان فى طليعة من تصدوا للكتابة الاجتماعية ، فلم يترك شيئا باليا فى مجتمعنا إلا سلط عليه طريقته الفنية فى وضوح وصراحة . . . . »

ثم ماذا نسمى — إذا لم نسمه أدبا رائعا — ذلك الذى نقله المؤلف من آراء توفيق الحكيم فى آخر الفصل الذى عقده عن المجتمع ؟ ألم يعتل فيها توفيق الحكيم الفنان منبر الوعظ والإرشاد لأمته ، بما تحمده له أمته ، وبما يتمتع به قارئه ، وبما ترتفع به — إن هداه الله — أخلاقه ؟

وبعد — فلست هنا بسبيل مناقشة ما جاء فى هذا الكتاب من آراء أوافق على أكثرها ، وأخالف أقلها . ولكننى يسعدنى أن أقدمه للقراء اعترافا بجهد المؤلف وفضل توفيق الحكيم على الأدب العربى .

حدائق القبة فى ٦ أغسطس ١٩٥٢

مهدى علام

حركة التجديد في الأدب العربي الحديث

مصر — بسبب موقعها الجغرافي الفريد — ملتقى الحضارات على مر العصور . قصدها الغزاة طمعا في ثروتها وخيراتها ، وقصدها التجار من الشرق والغرب على حد سواء . فلم يعرف العالم حضارة أو نهضة لم تتأثر بها مصر من قريب أو بعيد أو تؤثر فيها بدورها ، لدرجة أن التاريخ المصري العام صالح إلى حد كبير لكي يكون نواة لدراسة الحضارة العالمية بأسرها . ومصر في إبان تاريخها الطويل لم تقصر تقصيراً مقصوداً في المساهمة في أوجه النشاط الذهني العالمي . فهي تعطي في أوقات تفوقها وتأخذ في أوقات ضعفها . وهي في ذلك كله مركز الإشعاع دائما بالنسبة إلى الفكر الشرقي الذي اصطبغ منذ الفتوح الإسلامية بالعروبة والإسلام. فليس من عجب إذاً أن تنهض الحياة الفكرية الشرقية أو تنتكس فوق علو المؤثرات التي تحيط بمصر أو وراء انخفاضها .

ولا يعي التاريخ المصري الطويل فترة أوذيت فيها الحركة الفكرية المصرية قدر فترة الحكم العثماني . فان الأتراك العثمانيين لأسباب حربية ودينية آثروا أن يعزلوا ملكهم جميعاً عن العالم الأوربي الذي كان يزخر في فترة التفوق العثماني بمقومات لازلنا نلمس بعض آثار قصورها الذاتي . ومما ضاعف في هذا الأثر أن الأتراك أنفسهم لم تكن لديهم حضارة من

الممكن أن تعوض بعض آثار هذه العزلة . وهم لم يستغلوا وضعهم كحلقة اتصال بين الشرق والغرب ليقوموا بالإشراف على عملية المزج بين التراثين الشرقى والغربى . وكذلك لم يحاول الأوربيون أنفسهم أن يتجهوا اتجاها جدياً إلى الملك العثمانى ، فقد شغلوا عنه بالكشوف الجغرافية التى باعدت بينهم وبين الاتصال بالشرق الأدنى .

وقد ترتب على حركة الكشوف الجغرافية أن اضمحلت التجارة الشرقية ، وكان لذلك أثره المباشر فى ضيق ذات يد المصريين ، وما صاحبه من ضيق الأفق . فان الثروة والاحتكاك لكل منهما أثره فى نشاط الفكر العام والخاص . وبالرغم مما يلصق بالعصور الوسطى من ظلام فكرى ، فانها لم تعدم قيام المفكرين فى الشرق والغرب . ولم تعدم أيضا الاتصال بينهما ، مهما يكن اتصالا مشوباً بطابع التعصب الدينى .. فعلى سواحل الشام ومصر حدث الاحتكاك بين العقليتين فى أثناء الحروب الصليبية . وبفضل النشاط التجارى الذى أسهمت فيه البندقية ومصر بنصيب بارز ، استمر الأخذ والعطاء بينهما .

أما فى العصر العثمانى فقد برزت آثار العزلة التى ضربت أطنابها على مصر وغيرها من أقطار الشرق الادنى ، بما ضاعفها من فقر وإيثار الناس للعافية . فكانت الطامة الكبرى التى أصابت الفكر الشرقى حين جفت الينابيع التى كانت تغذيه دائما . وليس أقتل للفكر من العزلة ، فانها تستتبع الجمود وتحجر العقول وتآسن الافكار وفقدها حيويتها . وقد انحطت

أساليب اللغة فى هذه الفترة فباتت ركيكة لا تحس فيها بلاغة أو معنى . وفشا استعمال الاساليب العامية والحلى اللفظية ، وقل الإنتاج الذهنى ، إذ أن الكتاب اقتصروا على استعادة الكتب القديمة وشرحها والتعليق عليها . وحينما قرأت لهذا العصر وجدت آثاراً واضحة للخمول الفكرى ، والعزلة الواضحة ، والانحطاط البارز . خذ مثالا لذلك عبد الرحمن الجبرتى الذى ظهر فى مصر فى أواخر الحكم العثمانى ووضع كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) فبالرغم مما فى هذا الكتاب من المعلومات التاريخية المهمة ، فانه يتميز بأسلوب سقيم ، وضيق أفق فى الجرى وراء الاسباب والنتائج . جاء فى وصفه لثورة أكتوبر ضد الفرنسيين : « كثر اللغط وتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم . وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين . وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وأدوات الحرب والكفاح . . وتجمعوا . . . وهدموا مساطب الحوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة . ووقف دون كل متراس جمع كبير من الناس . . ولما سقط عليهم القنبر ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ؛ نادوا يا سلام من هذه الآلام . يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف »

وجاءت الحملة الفرنسية مؤذنة برجوع مصر إلى المشاركة فى الفكر العالمى . كانت هذه الحملة تمثل أوروبا التى طفرت إلى الامام خلال ثلاثة قرون ، عرفت فيها الطباعة والبارود والبوصلة ، كما عرفت الاساليب

العلمية الحديثة ، والمبادىء الفلسفية التى تعتبر الثورة الفرنسية بعض نتائجها. أما مصر فكانت لاتزال تمثل العصور الوسطى . والفارق كبير بين العقليتين بمقدار الفارق الزمنى الطويل الذى قطعناه فى تأخر وقطعته أوروبا فى تقدم . وحدث الأثر الجديد فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ذاتها وإن كان قد بدأ ضعيفاً . فالمصريون قد ذهلوا لما رأوا فى الفرنسيين من عادات وأخلاق وأفكار تختلف عن عاداتهم وأخلاقهم وأفكارهم اختلافا تاما . كما ذهلوا لمقارنة تأخرهم بتفوق حكامهم الجدد . وتلحظ ذلك كله فى الجبرتى ذاته فانه يمثل أفكار عصره . ومما يدل على الأثر الجديد الذى امتد إليه أنه بات بعد وفود الفرنسيين إلى مصر أكثر نقـــداً وجرياً وراء الأسباب والنتائج . وقد قل تعصبه الاعمى للدرجة التى أدت به إلى تمنى زوال العثمانيين .

ومنذ الحملة الفرنسية لم ينقطع الاتصـال بين مصر وأوربا ، بل إن الحوادث قد أدت إلى اتساعه واستدامة آثاره . فقد ازداد هذا الاتصـال وخاصة فى عهد محمد على وحفيده إسماعيل : أرسلت البعثـات إلى أوربا ، وتدفقت الجاليات الأجنبية على مصر ، واتسعت حركة التعليم ، وظهرت الصحافة ومن ورائها الرأى العام الذى ألهبته النوازل التى ألمت بمصر والشرق بسبب حركة التوسع الاستعمارى والرأسمالى من جانب الغرب. واجتمعت كل هذه العوامل لتثبت أقدام النهضة المصرية الجديدة ، ولو أنها حتى الآن لم تكتمل أو تستقر الاستقرار الكافى — إذ أن هناك عوامل لاتزال تصطرع

فى مجتمعنا وفى قرارة تفكيرنا ، منها الاصطدام بين القديم والحديث ، وبين الاقتباس عن الغرب أو محض الرجوع إلى تراثنا القديم .

وقد بدأت نهضتنا الفكرية باتجاهين متوازيين: الترجمة لآثار الفكر الغربى، وبعث تراثنا القديم . وبمرور الزمن امتزج الاتجاهان ولا زال كل منهما يفعل فعله فى تفكيرنا وأدبنا المعاصرين ، مع وضوح أن الأثر الغربى قد أخذ يطغى طغيانا بارزاً على التراث العربى القديم . ويقال فى قوانين التطور إن البقاء للأصلح — فهل يقيض للأجيال القادمة أن تشهد نتيجة هذا الاخذ والجذب بين العاملين ؟ وهل يمكن التوفيق بينهما ؟ وهل نترك هذا التوفيق للتطور الزمنى ، أو نعمل على توجيهه ؟ هذه كلها أسئله لابد أن يعرض قادة فكرنا ورجال تربيتنا للإجابة عنها حتى يأخذوا بيد الأجيال القادمة ، بدلا من أن يتركوها تنافح وحدها ويبدأ كل منها الطريق من أوله .

وإذا ماقارنا بين نهضتنا الحديثة والنهضة الأوربية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أمكننا الإفادة من دراسة تاريخهما المقارن . فان عملية البدء تكاد تتشابه فى النهضتين . ولما كانت النهضة الأوربية سابقة على نهضتنا فان فى دراستها فائدة كبرى إذا ما حاولنا التأريخ لاتجاهاتنا الفكرية المعاصرة. والبناء الجديد يستلزم دائما أن يوجد له الأساس الذى يبنى عليه . فلم توجد حضارة ما أو حركة عقلية قامت طفرة واحدة ، أو وجدت دون أن يكون لها ماض ترتكن إليه . بغض النظر عن الحضارات الأولى التى قامت على محض المحاولة والخطأ واستلزمت أجيالا وقرونا عدة لكى تغرض نفسها . وهنا

تظهر قيمة التقاليد الموروثة بما فيها من الصالح والطالح — فحتى الثورة على القديم تستلزم وجود هذا القديم حتى تكون هناك ثورة .

بدأ الغربيون بالإعجاب بآثار اليونان والرومان الأقدمين ، فجعلوا من فرجيل وهومر وهوراس وغيرهم مثلهم الأعلى . وقد قيل فى تعريف هذه النهضة أنها تجديد الميلاد (Renaissance) أو البعث لهذه الآثار القديمة . وبمرور الزمن أصاب حركة التجديد هذه ، تجديد آخر وثان وثالث . . . الخ حتى أصبحت اليوم تدرج تحت اسم (الدراسات الكلاسيكية القديمة) . فهى اليوم بالنسبة إلى الفكر الغربى مجرد آثار وتحف ينظر إليها نظرة مقرونة بالإعجاب والعرفان بالجميل .

كذلك امتازت نهضتنا الحديثة بالإعجاب بأدبائنا القدماء كالمتنبى وأبى العلاء والجاحظ وابن الرومى وعبد الحميد الكاتب . . . الخ الخ الخ . وذلك أن طلائع كتابنا قد نظروا إلى تراثهم العربى القديم على أنه مثل أعلى ، وآمنوا بأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان فى صدر الحضارة الإسلامية ، حتى أن البعض قد يغالى فيرجع إلى شعر المعلقات السبع واضعا إياه نصب عينيه إذا ماحاول أن ينشد شعرا . ومن هؤلاء على الجارم الذى كان يتوخى التقاط الغريب من الألفاظ والمجلجل من الوزن .

والبارودى — الذى يعتبره النقاد زعيم حركة التجديد فى شعرنا الحديث نجده صورة طبق الأصل من الشعر العربى القديم دائم الرجوع إلى الوراء ، والالتزام بالألوان التى حددها ديوان الحماسة . فهو الشاعر الفخور المداح

الراثى الغزِل ، الذى يحاول أن يجمع بين دولتى السيف والقلم ، مزج بهما شعره فى لفظ رصين يهدر كالموج .

وشوقى ذاته شاعر عربى إسلامى فى جوهره ، لم يبتكر جديدا فى ألوان شعره أو معانيه ، ولم يخرج عن كونه (أبا الطيب المتنبى) يعيش فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وذلك رغما عن كونه قد تأثر بعض الشىء بالمؤثرات الغربية بفضل اتصاله بأوربا بين وقت وآخر ، بالإضافة إلى تلقيه بعض علومه بها ردحا من الزمن . فشوقى مؤمن يقدس أخوة المسلمين ، ويعبر عن أفكار الجامعة الإسلامية كما بدت واضحة منذ أواخر القرن الماضى على يد السلطان عبد الحميد الذى حاول أن يحيى فى ذاته خصائص الخلافة وإمامة المؤمنين . وهو محافظ فى اللغة يرى فى التراكيب العربية القديمة متسعاً لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال . « وحكمة شوقى وما يصدر عنه من وصف وغزل وما يميز شعره جميعا يبدو كأنه شرقى عربى لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار . وهذا طبيعى مادام شوقى شاعر العرب والمسلمين ، ومادام يجد فى الحضارة الشرقية القديمة مايغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية إلا بالمقدار الذى تحتاج إليه أمم الشرق فى حياتها الحاضرة لسيرها فى سبيل المنافسة العامة . ولقد ترى شوقى يغلو فى شرقيته وعربيته أحيانا . ولقد تراه يتعمد ذلك فى لفظه ومعناه . وسبب ذلك هو مايراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ماخلف السلف من تراث ، والأخذ بكل مايلمع به الحاضر من رواء الغرب . وقد يكون غلو

شوقى أكثر وضوحا فى جانب اللغة منه فى جانب المعانى. فهو بمعانيه وصوره وخيالاته يحيط مما فى الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقى، وترضاه الحضارة الشرقية. أما لغته فتعتمد على بعث القديم من الألفاظ التى نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها. ولعل سر ذلك عند شوقى أن البعث وسيلة من وسائل التجديد.» (١)

ولا يخرج حافظ إبراهيم عن هذا الحكم من حيث احتذاؤه للشعر العربى القديم، فهو يرى فى اللغة العربية «البحر فى أحشائه الدر كامن»، وينعى على أبنائها تقصيرهم فى الأخذ بألفاظها القديمة. وبالرغم من براعته فى تصوير لواعج نفسه، وفى تجسيم بعض الظواهر الاجتماعية، فانه لم يجدد، بل كان هو أيضا كأنه أحد الشعراء القدامى، أما شوقى فقد جدد إلى حد ما بادخاله المسرحية الشعرية فى الأدب العربى، ولو أنه حاول فيها أن يبرز جمال الشعر والعاطفة، ولم يتجاوزه إلى نوع من الخلق الفنى للنفوس والأشخاص. فمثلا «هاملت» و «عطيل» لشكسبير — مع ما فيهما من جزالة الشعر وقوته — تمثلان فى نفس الوقت لونين من ألوان البشر: المتشكك المتردد، والمندفع. المتهور. وذلك أن شكسبير كان يتعمق النفس البشرية من حيث نوازعها ودوافعها، فمسرحيته فضلاً عن كونها شعرا تمثيليا، صورة نفسانية أيضا.

. . . . . .

وكذلك كانت نهضة النثر العربى إلى الوراء لا إلى الأمام حين بدئها.

---

(١) محمد حسين هيكل — فى تصديره للشوقيات.

فان التجديد فى النثر لم يعن الابتكار أو تعديل القديم بحيث يساير العصر ، بمقدار ما كان يعنى تلخيص الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى . فالتسابق بين الأدباء لم يكن فى حيز المعانى ، بل فى حيز اللفظ والحلية اللفظية . والمثال المحتذى فى هذا الميدان هو ابن العميد وبديع الزمان الهمذانى .

وقد حاول المنفلوطى أن يقرب بين الأسلوب العربى والآثار الأوربية . ولكن عملية الربط هذه لم تتعد الأسلوب اللفظى ، ولم تصل إلى منطقة الابتكار والخلق . (فنظراته) و (عبراته) إن هما إلا مجموعة من المقالات المتفرقة بعضها مقتبس ، وبعضها الآخر موضوع . ولكنك لا تجد فيهما شيئا جديدا يدل على ذاتية مخالفة لذاتية المثل الأعلى القديم . جاء فى النظرات بعنوان (احترام المرأة) : « ولا يستطيع الشيخ الفانى أن يجد فى أخريات أيامه فى قلب ولده الفتى من الحنان والعطف ، والحب والإيثار ، مايجد فى قلب ابنته الفتاة فهى التى تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته ، وقلبها مستودعا لأسراره ، وهو اجس نفسه وهى التى تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه ، وتصغى إلى أناته ، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ، ونظرات عينيه ، حاجاته وأغراضه فاذا نزل به قضاء الله كانت هى من دون ورثته جميعا الوارثة الوحيدة التى تعدّ موته نكبة عظمى لا يهوّنها عليها ، ولا يخفف من لوعتها فى نفسها أنه قد ترك من بعده ميراثا عظيما . وكثيرا ماسمع السامعون فى بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره ، أصوات أولاده يتجادلون ويشتجرون فى الساعة التى يجتمع فيها بناته

ونساؤه فى حجراتهن نائحات باكيات . » ومثل هذا الأسلوب الذى كان فى عصر المنفلوطى آية من آيات البلاغة ، لايخرج فى وقتنا الحاضر عن موضوع من موضوعات الإنشاء التى يضعها تلاميذ المدارس الثانوية .

كذلك نجد أن كتاب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى عبارة عن القالب الفنى القديم المأخوذ عن الحريرى وبديع لزمان الهمذانى فى مقاماتهما ، مع اختلاف بسيط فى الموضوع الذى يدور حوله الأصل . فبدلا من أن يكون المجتمع العربى ، أصبح المجتمع المصرى . والأسلوب فى مجمله هو أسلوب المقامات . وهو لا يلتزم السجع والتكرار باستمرار ، بل نجده يسجع ثم يرجع ليرسل القول على سجيته . جاء فى طليعة هذا الكتاب : « حدثنا عيسى بن هشام — قال : رأيت فى المنام ، كأنى فى صحراء « الإمام » أمشى بين القبور والرجام ، فى ليلة زهراء قمراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، فيكاد فى سنانورها ينظم الدر ثاقبه ، ويرقب الذر راقبه . وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور ، وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكبره ، وشموخه بمجده وفخره ، وإغراقه فى دعواه ، وإسرافه فى هواه ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لرمسه . فقد شمخ الغرور بأنفه ، حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكبارا لما جمع ، واستعلاء لما ملك . . . الخ الخ . »

ولكن المويلحى فى ذلك كان خطوة لابأس بها فى طريق تجديد الأدب العربى الحديث ، فقد جاء كتابه فى طليعة الكتب المؤلفة فى الأخلاق والعادات والنقد الاجتماعى . وهذه ناحية كان الأدب القديم قد أغفلها . فقد

عاش هذا الأدب للملوك والكبراء والفخر والهجاء. ومن هنا كان بعده عن تصوير آمال الناس وآلامهم وعواطفهم. كان أدبا تبدو فيه الصنعة، فهو من هذه الناحية مرادف للغة، لا يثير التفاتا كبيرا إلى غيرها. وحتى الغزل الذى هو قرين العاطفة والمشاعر، قد دخلته هذه الصنعة - فكنت تجده (كليشيها) تبدأ به القصائد، وتلف وتدور، وتستطرد من التشبيب، والوقوف على الدمن والأطلال، حتى تخلص فى النهاية إلى أغراضها. ويبدو وضوح هذا الغلو من حيث الشكل فى (التزام) الشعر العربى الأصيل لتلك البحور والقوافى التى تحصر فكر الشاعر فى قالب يحد من انطلاقه ولنقارن ذلك بعذوبة الشعر ورقته حين دخلت إليه الموشحات فى الأندلس؛ فقد أصبح بتركيبه الجديد أطوع فى يد الشاعر، وأقدر على تصوير احساساته.

ومن الإمعان فى هذا (الالتزام) دخول مثل هذه القيود إلى النثر. وهى قد كبلته دهرا طويلا بمعايير ليست منه، وليست فى حدود طاقته. وإلى هذين السببين: انعزال الأدب العربى عن مجتمعه، وإحاطته بقيود شكلية تحد من الانطلاق والابتكار - يمكن أن نرجع سهولة خضوعه لعوادى الطقوس والتقليد فى فترات ركوده السابقة وفى فترة صحوته الأولى.

. . . .

ثم جاءت المرحلة التالية فى تاريخ نهضتنا الادبية الحديثة، من بعد اتساع حركة التعليم، وانتشار الصحافة والمجلات وتعدد ألوانها، وإمعاننا فى الاتصال بالفكر الغربى، وبعث تراثنا الشرقى: خاصة عقب افتتاح الجامعة المصرية.

وقد تميزت هذه المرحلة بالخطوة الحاسمة التى باعدت كثيرا بين الأدب العربى الحديث وبين (القوالب) القديمة من حيث ظهور التجديد فى الأسلوب الأدبى ، والموضوع الفكرى ، والقالب الفنى . أو بمعنى أصح أن هذة الخطوة للنثر العربى قد تميزت بالتجديد فى الخلق ذاته والابتكار...

وعلى رأس الذين أنتجتهم هذه المرحلة من مراحل النثر العربى : لطفى السيد وعلى ومصطفى عبدالرازق وهيكل والرافعى والزيات وأحمد أمين والمازنى وتيمور وسلامه موسى وأبوحديد وزكى مبارك ومنصور فهمى وغيرهم ...

ولكنى أرى الاشارة هنا بصفة خاصة إلى ثلاثة بالذات يمثلون فى نظرى خلاصة الاتجاهات المختلفة فى الأسلوب والخلق فى النثر العربى الحديث وهم : طه حسين ، وعباس العقاد وتوفيق الحكيم .

فقد اتضح اليوم لكثير من النقاد والباحثين فى أساليب أدبنا أن طه من حيث الأسلوب يمثل «الاديب» والعقاد يمثل «المفكر» والحكيم يمثل «الفنان» . وتلك أضلاع المثلث فى هرم الادب العربى الحديث .

وطه حسين على قمة الطليعة التى عنيت باطلاق النثر على سجيته دون كبير تقيد بما كان يلتزم به القدماء من حلية لفظية . وهو الذى أدخل النقد فى الأدب العربى الحديث ، وأرساه على أصوله الغربية ، وبسبب عمله الطويل فى الجامعة المصرية ، وفى ميدان الصحافة ، إستطاع أن يؤثر تأثيراً قوياً فى الجيل الجامعى الذى يتصدى للحركة الأدبية الفكرية المعاصرة .

ومجهوده فى هذا الميدان دائم الأثر لا يمكن أن تتطاول إليه عوادى الإنكار . ويكفى فى هذا المجال أنه أشرف على تخريج وتوجيه مدرسة جامعية تحررت من القيود القديمة وأخذت من بعد ذلك تواصل السير فى طريقها الجديد بعد أن وقفت على قدميها .

ومع ثورة طه حسين على القديم ، فانه آثر أن يلزم نفسه بموسيقى اللفظ وترديده ترديداً طويلا — فهو يصول ويجول ، وينتقل بك من فكرة إلى فكرة ، ومن ميدان إلى ميدان ، ويدور دورانا قد يطول حول المعنى الذى يقصد إليه ، قبل أن يلقيه إليك . مثال ذلك ما جاء فى (دعاء الكروان) حين يفرض ذلك الطائر على القصة ويجعله يناجى بطلتها فى مواضع مختلفة منها . ولا يكاد يختفى حتى يظهر من جديد :

« لبيك لبيك أيها الطائر العزيز . ما أحب صوتك إلى نفسى إذا جثم الليل ، وهدأ السكون ، ونامت الحياة ، وانطلقت الأرواح فى هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامتة لا تسمع .

« إن صوتك إذن لاشبه الاشياء بأن يكون صوتا لروح من هذه الأرواح ، ليذكرنى روح هذه الأخت التى شهدت مصرعها معى فى تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفى ذلك الفضاء العريض الذى لم يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

« لبيك لبيك أيها الطائر العزيز . ادن منى إن كان من أخلاقك الدنو . وا أنس إلى ان كان من خصالك الانس إلى الناس . واسمع منى وتحدث إلى .

وهلم نذكر تلك المأساة التى شهدناها معاً وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التى أزهقت ، وعن هذا الدم البرىء الذى سفك . . . الخ »

أما العقاد فهو ناثر وناظم معاً . نجح إلى حد كبير فى التوفيق بين القديم والحديث سواء فى شعره ونثره . وفى كتابته لا تعدم أن تجد التراكيب العسيرة التى قد يعز فهمها على كثير من القراء . وهو كذلك يتصف بالعمق والتفكير ، وباصطناع العرض الجدلى والمنطقى والتحليلى ، مع قوة عارضة واضحة تماما فى كل ما يكتب . ونجده من ناحية ثالثة متأثراً إلى حد كبير بالفكر الغربى سواء فى طريقة عرضه أو فى تشبيهاته واستعاراته وكناياته .

وإذا كان طه حسين قد ارتقى بالأدب التصويرى كما يتضح جلياً فى كتابيه (الايام) و (أديب) فان العقاد قد أدخل إلى أدبنا الحديث الأسلوب التحليلى كما هو واضح فى كتابه (سارة) جاء فى وصف سارة .

« ومما لا ريب فيه أن سمات الاخلاق والافهام شىء يستكن فى النفس قبل أن يبدو على أسارير الوجوه ، وأنها شىء لا يزول من النفس ، وإن زال أثره الظاهر فى بعض الأحيان ، وأنه على قدر معانى النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعد الوجوه يكون الأنس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد ، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط إلى اللقاء

« وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللاتى لا يطالعنك بمنظر واحد فى محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين فى دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء ، وتراها بعد

حين — وقد تراها فى يومها — فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها فى مراس كيد النساء ودهاء الرجال . وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة أخرى — وقد تكون على أثر الأولى — فذاك عقل يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين.

« هى تارة أم رؤوم تفيض بحنان الأمهات حتى ليرشك أن تسع به أطفال العالمين . وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا إلى جانبها طفل يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الأمومة.

« وهى تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط فى دار ولا وطن ، وما استقرت قط مع عشيق.

« ولها صورة إلى جانب سرير ، لو نحيت عنها السرير جانبا لمثلت لك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق إلى محراب القربان .

« ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة فى أرض يونان القديمة تهم بالرقص فى كروم (باخوس) .... الخ الخ . »

واستعارة (القرابين البشرية) و (كروم باخوس) ليست من الأدب العربى القديم فى شىء . بل هى صور يونانية خالصة قد يستنكف الأدب (المحافظ) قبولها لما فيها من تعارض مع بعض العقائد الراسخة . ونلمس مثل هذا فى ديوانه — ففيه مثلا (ثورة الملائكة) و (ثورة إبليس) وغير ذلك مما هو فى الواقع بمثابة ثورة فى الموضوع الشعرى العربى دون أى

التزام بالموضوعات الشعرية القديمة عند العرب .

وأما توفيق الحكيم — صاحب هذه الترجمة — فهو مجدد الأسلوب الفنى فى الأدب العربى الحديث : أدخل عليه فن الحوار الذى استقر على يديه استقرارا دائما فى أدبنا المعاصر . كما أقر فى الفن والأدب قوالب أخرى مثل اليوميات (١) والاعترافات والرسائل (٢) والقصة الطويلة (٣) — وكلها ألوان لم يعرفها الأدب العربى من قبل على هذا الوضع الفنى الذى عرضه .

والحكيم لا يهتم كثيرا بالزخرف اللفظى ، وهو ينتقل بين اللغة العامية فى بعض مسرحياته وقصصه حين يعرض للحوار الذى يصور بعض طوائف المجتمع تصويرا طبيعيا ، وبين اللغة الفصحى الراقية حين يود إبراز الأفكار العليا فى عرضه للقضايا التى تتصل بالإنسان ومصيره ، أو باتجاهات ذهنية فلسفية . فهو من هذه الناحية فى طليعة الثوار من مفكرى العصر على قيود اللفظ و (صناعة) الأدب . فالأدب عنده لا يلتزم إلا بالكمال الفنى ومراعاة مقتضى الحال . وهذه هى الناحية التى يختلف فيها عن زميليه الآخرين . فطه حسين متنقل بين القديم والحديث ، لا يكاد يستمع إلى (صوت باريس) حتى يستهويه صوت أبى العلاء — ولا يكاد يعرض للفكر الغربى حتى يتمثل له المتنبى . وعلى العموم نجد أن الاتجاه الشرقى غالب على الشكل الأدبى عند طه حسين ، وإن كانت أفكاره فى حد ذاتها وفى شمولها أقرب إلى حد كبير من المثال الغربى . وقد سبق أن ذكرنا أن العقاد قد لا يخلو

(١) يوميات نائب فى الأرياف (٢) زهرة العمر والرباط المقدس (٣) عودة الروح الخ

من قصد الايجاز - كما عرفته البلاغة العربيـــة - فى بعض الألفاظ والتراكيب.

على أن ظروف التكوين الأدبى عند الحكيم تختلف إلى حد كبير عن ظروف طه حسين والعقاد. حقا إن طه قد عاش فى أوربا بعد التحاقه بالجامعة القديمة، ولكن القيود الخاصة المفروضة عليه وحده باعدت بينه وبين الاندماج الكلى فى الحياة الغربية. ولذلك فانه لم يعرف منها أكثر من الجانب الأكاديمى. والعقاد لم يعش كثيرا فى أوربا. وإنما كان أكثر ملامسته لأفكارها عن طريق القراءة فى أغلب الأحوال. ومن هنا كانت نشأة كل من طه حسين وعباس العقاد لها آثارها فى إنتاجهما.

أما الحكيم فهو ربيب الفن فى مصر وباريس. وهو كذلك الجامع المازج بين عصارة كل من الأدب والفن بمعناهما الواسع. عاش فى باريس بعد الحرب العظمى الأولى، حين كانت حركة المودرنزم طاغية على الفن والفكر الغربيين. فالفكرة المسيطرة على الفن حينئذ كانت هى الفطرة والبساطة. «يطلبون فى الفطرة النضارة. ويذهبون فى البساطة إلى حد التركيز. لقد غالوا فى التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن عن الآخر فصلا تاما. فالتصوير وهو فن الألوان يجب أن يستغنى عن الموضوع، لأن الموضوع من عناصر القصة. والشعر وهو فن الشعور يجب أن يستغنى عن العقل الواعى ...، والموسيقى وهى فن الأصوات يجب أن تستغنى عن الشعور. والنحت وهو فن الأحجام يجب أن يستغنى عن الأفكار .... الخ الخ»

وكان موقفه بالنسبة إلى المودرنزم والكلاسيك يختلف عن موقف الأوربيين: فالقديم بالنسبة للأوربيين جديد عليه . فما باله بالحديث وهو جديد بالنسبة إلى الأوربيين ؟ لقد استطاع فى أثناء إقامته بالعاصمة الفرنسية أن يهضم الحضارة الغربية فى قديمها وحديثها بعد مجهود ليس بالقليل . وكان موزعا بين القديم والحديث ، يأخذ منهما بنصيب ولا يتحمس لايهما تحمسا دائما — يستمتع بما فى اللوفر من روائع قديمة ، ويقف أمام كل صورة أو تمثال محاولا البحث عن مواضع برودتها وحرارتها ، ومحاولا أيضا أن يربطها بالفكرة الموحية إلى خالقها . وهذا لا يمنعه من التطلع الى الفن الحديث (الفاقع) (الصارخ). ويقرأ للكتاب الاوربيين القدماء ، واقفا على آثارهم وقفة طويلة للإلمام بدوافعها والمثالية التى تحيط بها . ثم يتابع دراسة الادب المعاصر . ويستمتع بالموسيقى (الكلاسيك) ويحضر المسرحيات القديمة . ثم يعرج على الموسيقى والمسرح المعاصرين .

ولا ينفك ، فى ذلك كله ، يربطه بحياتنا الفكرية والفنية والادبية . ولا ينى فى المقارنة المستمرة بين التراثين . واستكناه أسباب تأخر الادب الشرقى بالرجوع الى أصولها التاريخية . وخرج فى النهاية ثائرا ثورة عارمة على انعزال الادب العربى عن مجتمعه وإيثار الشكل وتطلعه الى الوراء ، دون أن يعمل على إطلاق الأديب لعنان مشاعره وإثباته لذاته .

ومن هنا كان الحكيم ليس فقط مجدداً فى الادب والفن ، بل هو كذلك وفى نفس الوقت مجدد فى الفكر والنظرة الاجتماعية والاخلاق ولعلى قد حاولت إبراز هذا الاتجاه لديه فيما اخترته من أفكاره ومأثوراته .

عصره

عرف توفيق الحكيم كلا من مصر وأوربا ، وأفاد كل جانب فى تكوينه ، ولمس الحضارة الإنسانية فى مرحلة حاسمة من تاريخها ؛ فقد شهد حربين عالميتين اكتوى العالم بنارهما فى ربع قرن . وطبيعة الحرب الحديثة - بما تفنن الإنسان فى اختراعه من أدوات الهلاك ، ومن المخترعات التى طوت عالم الزمن والمكان طيا — قد اقتضت أن يكتوى العالم كله بنارها ، سواء فى ذلك الدول التى تشترك فيها أم تلك التى تقف على الحياد .

وأدى ذلك الى اتجاه الحكيم فى فكره وميوله إلى ناحية البشرية كلها ، فتلمس عنده تلك النزعة الإنسانية التى تخترق المعايير المعروفة ، فيشترك معنا فيها الحيوان . ومن هنا نراه يتصور حمار افيلسوفا [1] فى عصر قل فيه الفلاسفة الحقيقيون من بنى الإنسان — حماره هو (صديقه) الذى فهمه دون أن يكلمه . أقحم على لسانه قدراً من تفكيره الصافى ، وأخرج لونا طريفا من الحوار بينه وبين (صديقه) الحمار ، أو إن شئت فهو حوار بين الحكيم والمثل الأعلى الذى لم يجده فى الإنسان فأنطق به الحيوان .

والإنسانى فيه لا يعرف التعصب ، ولا يعرف الحقد والإحن ، فهو ينظر للناس جميعا نظرة واحدة ، ويدرسهم دراسة شاملة ، ثم يعود

---

(١) حمارى قال لى وحمار الحكيم

فيتصور عصرا تحل فيه المصافاة محل البغضاء ، فيرفرف السلام على وجه الأرض ، ونعيش فى ذلك الفردوس الأرضى الذى هام به أصحاب المدن الفاضلة . يتمنى ذلك جاهدا وتجده دائما محل تفكير مخلص من جانبه . ولكنه يرجع فينظر إلى هذا المثل الأعلى نظرة واقعية على ضوء مابداخل النفس البشرية من غرائز ودوافع وأنانية .

ويتساءل : كيف يمكن أن يتحقق هذا المثل الاعلى ؟ ويجيب على ذلك بأنه قد يمكن إتمامه عن طريق تسلط مذهب واحد صالح على جميع بقاع المعمورة وهنا يتصور مدى ملل الناس للسعادة والتشابه والحياة التى لا تغيير فيها . فالحرب والكفاح والاختلاف والتغير مما يعطى الحياة طعما ، فهى تحمل جميعا معنى الامل . وفردوس أرضى مسالم خير قد لا يرضى فينا حب المجهول ، ويطفى شعاع الامل والحافز المتجدد الذى يطالعنا به الغد المأمول وحتى إذا أمكن الإنسان أن يقضى على (الفناء) ويخلد فى الارض نتيجة للتقدم العلمى الحديث ، ويصبح (الها) صغيراً ، يتعاطى (طعامه وغذاءه) عن طريق الامصال ، ويفكر بالإشعاع ، فانه سيحاول جاهدا أن يعود إلى العالم المنشود : عالم الموت . وحتى اذا تسنى لمذهب معين أن ينتشر ، فانه لابد أن ينتج عنه مذاهب أخرى مابين متطرفة إما لليمين أو للشمال .

وهو لإيمانه بوحدة الوجود والانسانية ، نجده فى قرارة نفسه مؤمنا بوحدة الحضارة . فان إنتاج العباقرة ليس ملكا لهم أولاوطانهم ، بمقدار ماهو ملك للنوع البشرى جميعه . ليس هناك شرق أو غرب ، قديم أو حديث . ولكن

هناك عبقرية مملوكة للجميع ، فى كل زمان ومكان. أرسطو وشكسبير والخيام وابن سينا — ليسوا ملكا لبنى جنسهم ، بقدر ماهم ملك لكل إنسان يفكر فى كل زمان ومكان ، فانتاجهم جميعا خالد يفهمه الناس فى كل لغة ، لانهم لا ينتجون فى الحيز الضيق ، بل يعالجون قضايا الانسان ، كل من زاوية ملكاته ، لأنها فى الواقع قضايا ليست خاصة بفرد معين ، بقدر ماهى خاصة بالمعانى والقيم التى يشترك فيها البشر كافة . الجميع . الكل ملك للإنسانية ولو أنهم ينتسبون لاوطان معينة.

والفكرة الإنسانية قد وجدت هوى لدى طائفة المفكرين الكبار الذين نظروا إلى المجموع البشرى كوحدة ، ثم بشروا بتحطيم القيود التى وضعها الساسة المحترفون ، والاقتصاديون المتعصبون ورجال التربية ذوو الميول الضيقه . وقد قيل اليوم : عالم واحد وحريات أربع. ولكن يا ترى هل من الممكن أن نحقق الوحدة العالمية فى ظل الأوطان دون حاجة إلى محوها ؟ ولقد قامت محاولات مختلفة مثل عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة . ولكن التجربة اخفقت فى المرتين لأن كل بلد يلقن شبيبته منذ الصغر أن مصلحته الوطنية تسمو فوق كل اعتبار ، دون مراعاة لمصلحة الأوطان الأخرى. وإن الكارثة الكبرى التى حلت بالعالم من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٦ كانت نتيجة الإمعان فى الضرب على وتر الإحساس القومى . فى ألمانيا كانوا يقولون إن ألمانيا فوق الجميع ، وإن الجنس الآرى يجب أن يسيطر على العالم لأنه أرقى الأجناس . وفى إيطاليا كان موسولينى يتغنى بمجد الإمبراطورية الرومانية ، ويتهدد العالم بما لديه من

مئات الألوف من الخراب وفى انجلترا لاشىء أبدع فى نظر الأمم التى تهدهد طفلها من كيان الإمبراطورية ، دون لفت نظره إلى الشعوب التى يرفرف عليها (العَلَم البريطانى) ! والأنشودة المحبوبة هى : احكمى يا بريطانيا وحتى الفكرة الشيوعية التى كان من المفروض أن تكون دولية ، عادت واقترنت (بالوطن) الروسى ، و (الوطن) اليوغوسلافى و (الوطن) الصينى وعادت الوطنية فاقترنت بالأنانية والدم والحديد .

وأصبح لا يؤمن بهذه الفكرة العالمية إلا طائفتان : المثاليون الذين يحزنهم ما العالم سائر إليه من الخراب فى ظل الفكرة القومية ، وحفنة من الاستعماريين الذين يبشرون بها فى الأوطان المستعبدة ليقتلوا فى أهلها كل إحساس بالوطن والوطنية فيصبحوا مسالمين وقد نسوا ماضيهم ، فلا يحركون يدا فى وجه غاصبيهم .

ومن هنا كانت المرارة التى نستشفها بين السطور حين تطالعنا أمنية الحكيم وقد أحاط بها المدفع . وقد قطر جسم الإنسانية دما متفجرا يروى الأرض الطيبة التى لا تجف إلا لتروى من جديد .

. . . . . .

ومع إيمانه بوحدة الحضارة ، فانه يحاول داخل إطارها أن يثير وعيا خاصا بقيام حضارة شرقية متميزة الروح ، وأن يقضى على عقد النقص التى تطالع الشرقيين حين يقرنون أنفسهم بالغربيين ، وأن ينفض عنهم ذلك الغبار الكثيف الذى ران عليهم إبان الحكم العثمانى . فهو ينقد جوانب الحضارة الغربية

التى غرقت فى المادية والوحشية إلى أذنيها ، فتناست القيم والروح التى لاتزال خميرتها مطمورة فى الشرق العظيم ، والتى لاشك عنده فى حيويتها المغمورة ، وفى تحركها من جديد فيما لو نفض أبناء الشرق عن أنفسهم غبار الماضى واطرحوا تكاسل الحاضر . هو من التفاؤليين أو — إن شئنا — من الحتميين . يؤمن بالتطور قدر إيمانه بأن الحضارة الشرقية جزء متميز له كيانه الخاص داخل إطار الحضارة العامة المتطورة ، وأن سنة التطور لابد راجعة بمركز الثقل إلى الشرق حين يفنى الغرب نفسه بنفسه بما لديه من قوى مادية وأدوات هلاك .

ولكن كيف يقيم الشرق حضارة جديدة وهو حديث عهد بالنهضة ؟

اتجهنا إلى النتاج الغربى اتجاها قويا منذ القرن الماضى . وفى الواقع نستطيع أن نقرن الحملة الفرنسية التى جاءت إلى مصر عام ١٧٩٨ بالنسبة للشرق ، بحادث سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ بالنسبة للغرب . كنا قبل ذلك فى عزلة عن المقومات التى دفعت بالغرب إلى الأمام . وفى ظل العزلة يضيق الأفق ، وهذا أشد نكبة للشعوب من ضيق ذات اليد ، وإن كان العاملان قد أثرا فينا بعد الفتح العثمانى لمصر والشرق الأدنى .

وحين لامسنا الحضارة الغربية منذ القرن الماضى . أخذ النشاط يدب فى أطرافنا ، وبدأت الجداول الآسنة التى كادت تجف ، تعود إلى الحركة مرة أخرى . ترجمنا عن الغرب ، فعرفنا شكسبير ، وجوته ، وداروين ، وموليير ، وديماس ، وسان بيير ، وولن ، وشو ، وغيرهم . ومن ناحية أخرى بدأت عندنا حركة

(بعث) للتراث العربى القديم . ولم نجد هنا تلك الصعوبة التى وجدها الأوربيون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وذلك أن اللغة اللاتينية كانت قد تفتتت إلى لغات محلية فى إيطاليا وايبرياوفرنسا ، فى حين أخذت اللغات الجرمانية تفرض نفسها على شعوبها ، فقامت اللغات الأوربية الحديثة وهى بعيدة بعداً متراوحا عن الأصل اللاتينى المهيمن على الغرب كله فى العصور الوسطى . أما اللغة العربية فانها وإن تشكلت فى البلدان المختلفة وراء اللهجات المحلية فانها لاتزال محتفظة برونقها العام . ومن هنا كان اتجاهنا إلى الجاحظ وأبى العلاء والغزالى والمتنبى أسهل من اتجاه الأوروبيين إلى ڤرجيل وهوراس وهومر وأفلاطون وأرسطو .

وهكذا وجدنا فى حضارتنا الوليدة اتجاهين : أحدهما شرقى خالص والآخر غربى خالص ، ولكل منهما قيمته . وفى مفترق الطرق بدأنا نواجه سؤالين واضحين: هل نحيى التراث العربى وننعش اللغة العربية بعد أن كادت تطمس معالمها فى عصورنا الوسطى ؟ وإذا كان ذلك كذلك — فهل نحيى اللغة العربية كما كانت فى صدر الإسلام ؟ إذا أجبنا عن ذلك بالإيجاب، بعدنا عن جادة الصواب ، ودعونا إلى قيام (أرستقراطية) لغوية لايهضمها عصرنا الديمقراطى ، ودعونا إلى ذلك اللون الذى انطبع به تفكير معظم كتاب اللغة العربية فى تلك الحقبة : الإطار اللفظى أولا ثم المعنى فى المحل الثانى .

ثم نتساءل عن الوجه الآخر : هل نتجه إلى التراث الغربى برمته ؟

إذا أجبنا عن ذلك بالإيجاب عدونا الصواب أيضا ، فلنا تقاليدنا وطبائعنا وتراثنا الذى يسرى فى ضمائرنا ، بحيث لا يسهل على كثير مناهضم ذلك اللون الغربى الخالص . فان دعونا إلى ذلك كنا أيضا داعين إلى (أرستقراطية) أخرى يكون من السهل مهاجمتها .

ولكن لابد من تلاقى الاتجاهات الفكرية إن طوعا أو كرها ، فان الحضارة الإنسانية مطلقة ومشاعة لا تعرف الشعوبية ولا تعرف التعصب بل هى تحاول جاهدة أن تكون فى الناس كالماء فى الأوانى المستطرقة ، وإن تشكلت فى البيئات المختلفة بأشكال متفاوتة . وإنما المهم أن يدرك من يتحضر على أى المناهج يسير ، وعن أى الاتجاهات يأخذ . أى أن التقمص الحضارى يجب أن يصحبه وعى وتنبه وتوجيه وإلا كان نهبا للارتجال والسطحية والتكلف والاهتمام بالقشور دون اللباب .

والجو الغربى الذى ينفذ على هذا النحو إلى حياتنا العامة والخاصة جميعا يدفع بظواهرها إلى النضج العاجل . ولكنه يضعف فى نفس الوقت من حيويتها الفطرية ويميل بها عن مجراها الطبيعى . فمادامت الظاهرة نصيبها من التربة المحلية محدود ، ومادام انصالها بالجو الخارجى متروكا لنفسه ، بغير ضابط فأن هذا الجو الخارجى سيحملها على الارتفاع السريع فتصاب بالسطحية والاضطراب ، والسقوط فى التقليد يضاف إلى ذلك أن الصيغة التى نضعها لمعالجة ظواهر حياتنا ، أيا كانت ، تنشأ عادة مشوهة بحكم اعتماد واضعيها على الاقتباس وبعدهم عن الناحية العملية من هذه الظواهر . ثم

إنهـــا تظل ضعيفة فارغة مادامت هـــذه الظواهر ناشئة لم تكتمل ، أو لم تبلغ السعة التي وضعت لها الصيغة المنقولة . فالمحكومون يقتدون فى بعض أفعالهم بما يطالعونه كل صباح من أخبار المجتمعات الأخرى ، والحاكمون يغالون فى الغالب فيما يقولون ليرضوا المحكومين ، ويرضوا اتجاههم الفكرى ، ويرضوا التيار الغربى الذى يحيط بهم . والجميع يصدرون فى أقوالهم عن تفكير دخيل ، ويصدرون فى أفعالهم عن الظروف القائمة لمجتمع ينتقل من حال إلى حال . (١)

من أجل هذا كله كان لابد من وجود الوعى ثم التوجيه إذا كنا نريد لاتجاهاتنا الفكرية ولأوضاعنا الاجتماعية أن تسير متسقة متزنة وهـذا مما لم يفت الحكيم .

نجده مؤمنا بالحضارة الغربية إيمانا قويا ، ولـكن على أساس ألا تفقدنا ضميرنا الشرقى . فهو يدعو إليها كوسيلة لدبيب الحركة فى جهودنا ، وإنعاش تراثنا المطمور ، وفق قواعد التقدم العلمى والفنى الحديث ، «فنأخذ عن الغربيين ما فى رءوسهم وندع ما فى نفوسهم . » نأخذ كل ألوان المعرفة دون تفرقة بين جنس أو قومية . إذ الحضارة مشاعة للجميع . وهنا نلمس الفرق بين الحكيم وطه حسين . أو نلمس العمل الذى يكمل به كل منهما الآخر . فطه حسين الذى يستهويه القالب اللغوى وجرس الألفاظ والتكرار ، والذى

---

(١) انظر البحث الممتع الذى وضعه الأستاذ صبحى وحيدة : (فى أصول المسألة المصرية) خصوصا فصليه الأخيرين (دار نشر الانجلو — ١٩٥٠)

يحيي أبا العلاء، ويتقمص المتنبي فى قرارة نفسه ؛ من حيث تأثره بالتراث القديم، نجده هو أيضا الذى يقدم أندريه جيد، ويشرف على ترجمات مؤلفات ولز ودستويفسكى ومرميه وستندال وألدس هكسلى. كما نجده — مع إيمانه بنقل تراث الحضارة — أكثر تحمسا للثقافة الفرنسية خاصة، وأشد تعصبا للدراسات الكلاسيكية اليونانية والرومانية، ومن هنا كانت دعوته لتدريس اليونانية واللاتينية فى المدارس الثانوية[١]. أما عند الحكيم فالحضارة الغربية كلها « لنا، نغترف منها، ونضيف إليها من ذوات أنفسنا . . ونضفى عليها من مشاعرنا، ونطبعها بطابع مزاجنا وإحساسنا، يجب ألا نتحيز للواحدة دون الأخرى أو نتشيع . » فهو ليس داعية إلى مجرد البعث والنقل . . ولكنه داعية إلى التمثل والابتكار .

وهو باتجاهه هذا ينفى عنا تلك الفرية التى طالما رمانا بها الغرب زوراً وبهتانا، من حيث اتهامه لنا بالتعصب . « وما من أمة فى الأرض أبدت من التسامح والتساهل والحرية، ونبذت من الجمود والقيود مثلما فعلت أمم الشرق إزاء الحضارة الغربية ! فلقد فتحنا أعيننا عليها بضمائر نقية، ونقبنا فيها بحسن نية، واخترنا ما اعتقدنا أنه ينفعنا فى حياتنا الحاضرة، وما ينفى عنها شبهة التمسك بالبالى من المظاهر . وذهبنا فى ذلك أحيانا أبعد مما ينبغى . فما وجدنا بأسا فى أن ننقل عن الغرب كثيرا من الأردية والأنظمة والقوالب والطرائق . . . فهى أعراض مما يلحق المدنيات القائمة، وأثواب

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر .

مما يغلف العصور المتجددة . . . . ولكن الذى ما كنا نتهاون فيه قط هو : الروح والجوهر . هنا نقول للغرب : قف ، وحذار أن تمس هذا الجانب من الشرق . ومهما يكن من أمر اتهامه لنا بالرجعية فنحن أقدم منه عهدا وأكبر سنا . ونحن نعرف أنه الآن فى شبابه المضطرب ونشاطه المتقد لايمكن أن يتريث ليبحث عندنا عن معونة . ولكن . . . . عندما يقعده الكبر ، وتذله الهزيمة ، ويذهب عنه الغرور ، ربما وقف لحظة ، وتلفت لحظة يلتمس الهداية . . . فلن يجد له عندئذ من هاد غير الشرق ، مهبط الحكمة ومنبع النور . » (١)

ومن ناحية أخرى دعا مركب النقص المتشككين من الشرقيين فى أنفسهم وفى شرقهم إلى إنكار وجود حضارة شرقية . وهنا نجد الحكيم يقف منهم موقفا لا يخالف فى درجته موقف الغربيين الذين يرمون الشرقيين بالتعصب ، فيرمى هذه الفئة الشرقية بالعمى والعقم والكسل ، ويحاول أن يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم وبشرقهم . فانهاض الثقافة الشرقية لايكون عنده إلا بنهوض الشرقيين ، فيبدءون أولا بالجرى واللحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية . كذلك نجده لا يقر تلك الفئة الأخرى من الشرقيين الذين يظنون أن التحمس للحضارة الشرقية معناه الجلوس متدثرين فى أطمار حضارات بالية يصعرون خدودهم ويصيحون بألفاظ نعرة مضحكة وفخر كاذب .

الثقافة الشرقية إذن لايمكن أن تكون بمعزل عن ثقافة أوروبا ، ولا

(١) فن الأدب ص ١١٩

أن تغمض عينيها عن هذه الثروة الهائلة . « فلنمد أيدينا غير مقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات . . . فنأخذ كل شيء ونهضم كل شيء ، ثم نعرج على روحنا القديم كل فى بلده ، فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ، إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألقة لم تستخرج بعد . فالغرب على نشاطه الفكرى ونهمه الذهنى لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق ، إذ لابد أن تكون معاوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعته لا تكشفها غير طبيعة الشرق وغرائزه وتجاريب حكمته المتراكمة فى أعماق نفسه على مدى آلاف السنين . »(١)

ومن هنا نجده يود تدعيم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية ، تقوم على دعامات من الإحساس والتذوق والتغذى بمختلف الفنون ، فالثقافة ليست كلاما تملأ به الرؤوس ، ولكنها يقظة الملكات كلها والحواس . . . وهذا الغنى لن يتأتى — فى نظره — إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق فى أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها . حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر من تلك اللآلئ القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك ، وقدم إلى الإنسانية باسم الثقافة الشرقية . إذا استطعنا أن نطبع تلك المادة الشرقية المطمورة بطابعنا الخاص ،

---

(١) تحت شمس الفكر ص ٨٣

ومزاجنا وروحنا ، وأن نخرج ثقافة حية نامية مستقلة بروحها ، يراها الغرب فكأنه يرى شيئا جديدا ، فأننا نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، مسيارين الفكر البشرى فى تطوره ، مساهمين بعلمنا ومواهبنا فى بنائه العظيم . وحينئذ يسترد الشرق اعتباره فى نظر الغرب .

والحكيم فى دعوته لهذا الاتجاه ، نجده يساهم فيه ويدلى بدلوه . فهو موسوعى التكوين الثقافى ، فلا يقف فى مطلق المعرفة عند حد زمانى أومكانى - له نظرته فى كل لون من ألوانها سواء أكانت شرقية أم غربية ، قديمة أم محدثة . ومن فن وأدب ودين ، إلى علوم طبيعية ومباحث ميتافزيقية . لقد أخذ عن الحضارة الغربية عصارة تراثها كله ، وطرائفها كلها ، لا ليحفظها مفروزة بل ليتمثلها ويهضمها ويعود فيضفيها على الأدب الشرقى دماً جديداً . يرينا الجاحظ وأبا العلاء فى نظرة جديدة ويخرج أشعب فى ثوب فنى حديث من الأدب الشعبى الراقى . ويستلهم ألف ليلة والقرآن والانجيل والمزامير فيخرج منها ألوانا مختلفة ، شرقيه الفلسفة والروح ، يلبسها جميعا ثوبا جديدا من فكرة انسانية جديدة فى إطار القوالب والأساليب الفنية الحديثه .

وهو كمصرى — تستنفذ مصر منه قسطا كبيرا من إنتاجه ، وهنا نجده يستلهم مصر القديمة فى تراثها وفكرتها عن البعث : البعث فى هذا العالم ، وعلى هـــذه الأرض ، وهو يحاول فى هـــذا المضمار أن يثير وعيا إلى ناحية مطمورة فى لا شعورنا طواها الزمن طيا .. خاصة بعـــد الفتح

العربى . فان مصر الفرعونية لم تمت بفتح الفرس أو الإسكندر ، أو تحت حكم البطالسة والرومان أو بانتشار المسيحية . هذه الأحداث التى توالت على مصر لم تمح فرعونيتها محوا تاما ، فاللغة القبطية التى كان يتكلمها أهلها قبل الفتح العربى - وهى التى كانت بحروف يونانية - إنما هى لغة مصرية قديمة .

وبالفتح العربى جاء حادث خطير أقام فجوة عميقة بين ماضى مصر وحاضرها ومستقبلها ، فجوة بين الحضارة الفرعونية وبين الحضارة العربية الإسلامية . فقد انتشر الدين الإسلامى وانتشرت اللغة العربية ، وطوانا الزمن طيا فى كيان واسع لا يلتقى بالا إلى الإحساس الوطنى بقدر مايعنيه صالح (الدولة العامة) و (الدين العام) و (اللغة العامة) . وهنا فقط اندثرت مصر القديمة الفرعونية . وحلت محلها مصر الإسلامية . وأصبحنا لاننظر إلى الحضارة الفرعونية كمبعث للوحى والإلهام بقدر مانظر إلى الحضارة الإسلامية . فتاريخ العرب لايزال حيا فى ذاكرتنا ، وهو يكون جزءا من تقاليدنا القومية . أما تاريخ الفراعنة فقد دفن ، فهو بالنسبة إلى معظمنا تاريخ ميت . وليراقب أى منا تأملا باطنيا لإحساساته حين يقف أمام مخلفاتنا القديمة وآثارنا . فأنه سيجدها لا تمس أوتارا حساسة فى تفكيرنا ماعدا الإعجاب بالفن للفن ، فأذا ذكرنا انها من عمل الفراعنة خيل الينا أنهم قوم غرباء عنا ، ماكانوا قط أجدادنا على هذه الارض .

أما الحكيم فانه يحاول أن (يبعث) هذه الفترة الزاهية ، ويحلها منا المحل الملائم فى إطار الحضارة الشرقية العامة . فاذا كان فى (عصفور من الشرق)

يصور شعور (محسن) الشرقى الذى ذهب إلى الغرب طلبا للعلم ، فانه فى (عودة الروح) يصور شعور المصرى الذى ينقب عن منبع ميراثه الثقافى والروحى فى (رواسب) الآلاف من السنين الكامنة فى ضمير مصر وريفها وأهلها الصادقين ، والذى يعتز بأصالة الشعب المصرى ، ويردد ألفاظه المباهية بعراقة حضارته .

(محسن) فى كلا الحالين يبحث عن الروح - هام بحثا عنها فى الغرب ، حيث سيطرت على تفكيره فكرة واحدة : روحانية الشرق وعظمته ومواضعها وينابيعها ؛ وفى مصر حاول أن يستوحى (روح) مصر القديمة الكامنة فينا دون أن ندرى . ويخرج من الكتابين إلى وجوب تقديس ماضينا ، دون أن نذهب فى ذلك التقديس إلى الحد الذى يجعلنا نوصد أرواحنا دون تلقى كل جديد ينفعنا ، ولو كان ذرة من أشعة .

وفى بعثه لمصر نلحظ الكلمات الآتية فى (عودة الروح) جاءت على لسان عالم فرنسى للآثار موجها كلامه إلى مفتش انجليزى للرى فى مصر : «هذا ما يفسر لنا نحن الأوربيين تلك اللحظات من التاريخ التى نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت . . . وتأتى بأعمال عجاب فى طرفة عين . كيف تستطيع ذلك إن لم تكن هى تجاريب الماضى الراسبة قد صارت فى نفسها مصير الغريزة ، تدفعها الى الصواب وتسعفها فى الأوقات الحرجة وهى لا تدرى . لا تظن . . . . أن هذه الآلاف من السنين التى هى ماضى مصر قد انطوت كالحلم ، ولم تترك أثرا فى هؤلاء الأحفاد . . . . أين إذن

قانون الوراثة الذى يصدق حتى على الجماد ؟ ولئن كانت الأرض والجبال إن هى إلا وراثة طبقة عن طبقة ، فلماذا لايكون ذلك فى الشعوب القديمة التى لم تتحرك من أرضها ، ولم تغير شيئا من جوها أو طبيعتها ؟ . . . قوة أوربا الوحيدة هى فى العقل . . . تلك الآلة المحدودة التى يجب أن نملأها نحن بارادتنا . أما قوة مصر فى القلب الذى لاقاع له . ولهذا كان المصريون القدماء لايملكون فى لغتهم القديمة لفظة يفرقون بها بين العقل والقلب . . . . . إنهم (المصريين المحدثين) لا يعلمون ماعندهم من كنوز . . . . ثق أن الفاسد من هذه الأخلاق ليس من مصر ، بل أدخلته عليها أمم أخرى كالبدو أو الأتراك مثلا . ومع ذلك فلا يؤثر هذا فى الجوهر الموجود دائما . . . . . إن هـــذا الشعب المصرى الحالى مازال محتفظا بتلك الروح . »

والواقع أننا لازلنا نحتفظ بالكثير من مصر القديمة. فالفلاح المصرى هو الفلاح الفرعونى ، فى طبعه وملبسه وكدحه وحتى فى أدواته : كما أن الكثير من عناصر الميثولوجيا المصرية قديمة الأصل . ومصر أقدر من غيرها على الخلاص من مصائب الزمن ، وما أكثر ماحل بها من مصائب الزمن ! ماضيها التليد السابق على غيره كان فى ضميرها دائما . فهى السابقة على الجميع فى ميدان التقدم والحضارة والعمران وطيلة تاريخها نجد عند أهلها قدرة عجيبة على هضم غزاتها وفرض طابعها عليهم : فتحها اليونان على يد الاسكندر المقدونى ، فأصبحت الاسكندرية بعد زمن مركز الحضارة الإغريقية . وفتحها العرب ، فأصبح الأزهر جامعة العلوم العربية الإسلامية ، يحج إليه

المتفقهون والمستزيدون من شتى الأقطار الإسلامية ، بل من بلاد العرب ذاتها .

لاشك أن عندنا حيوية كامنة فينا تفرض طابعها على غزاتنا ، فسرعان ما (يتمصرون) ، ويخرون على أقدامهم ساجدين أمام محراب الفن والفكر . إلا الاستعمار الأوربى الحديث ، فانه لم يتأثر بنا ، لأنه حين جاءنا كانت هذه الحيوية قد ذوت ، فلم تكن عندنا البضاعة التى نعرضها . كنا فقراء فى سوق الفن والفكر ؛ وفاقد الشىء لا يعطيه . ومع ذلك فهذه الحيوية قد جعلتنا ننتصر من حيث لا ندرى فلا الفرنسيون ولا الانجليز استطاعوا أن يفرضوا علينا قيما خاصة ، ولا استطاعوا أن يطووا ماضينا طيا كما فعلوه فى أقطار أخرى .

لقد قاومنا الاستعمارين الفرنسى والانجليزى ونحن نعرف أننا أمام عدو قوى ، فلم يردنا شىء عن المضى فى طريقنا ، اللهم الا ضعفنا كأفراد أمام المغريات والمنافع الشخصية التى قد تنحرف ببعض القادة عن الطريق السوى . وقد أوضح لنا الاستعمار الغربى جانبا من تفوقه . ودخول الجسم الغريب علينا هو الذى أعد الدم لحركة المقاومة والانتعاش . فنحن من ناحية أعدنا النظر إلى أيام عز مصر القديمة وصدر الإسلام ، ومن ناحية أخرى قامت عندنا تلك النخبة الصالحة من المفكرين الذين لامسوا أوربا ، واتصلوا بها ثقافياً . وهم أساطين جيلنا وحملة المشاعل للأجيال القادمة ، والموجهون للجيل الحاضر فيما لو أصاخ السمع .

إن الشرق قد صحا لاشك فى ذلك . ونحن فى فجر عهد جديد لاشك فى ذلك . وإن الحضارة الغربية آخذة فى التغلغل فينا ، لا شك أيضاً فى ذلك . ولكننا سنفيد منها ، ونفرض عليها طابعنا ، فنخرج للأجيال حضارة جديدة كما تنبأ توفيق الحكيم .

مشكلة الفكر

نحن الآن حائرون فى ميدان الفكر، تطالعنا تيارات مختلفة دون ان نتمكن من هضمها أو تتمكن هى من التغلب على العادات المتأصلة فينا . ويرجع ذلك إلى أن رأينا العام لم يتكون بعد . فكل شىء فى مصر يجعله مشوها مضطربا مبلبل الأتجاه مشتت الهدف « لأن كل شىء فى بلادنا له نسخ متعددة وأثواب مختلفة . . وهذا الخلط فى الأوضاع والتعليم والتربية والإطار الذى يعيش داخله الناس فى بلادنا ، جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة — كل عقلية تفكر تفكيرا خاصا . . وترى الدنيا من زاوية منفردة . وكان من أثر ذلك أن حبس كل فرد داخل حلقة منفصلة من وضعه الذى نشأ عليه . . . . يرى الدنيا دنياه ، ورأيه هو وحده الذى على حق . . . لا يفهم جاره ، ولا يشعر بشعور مواطن آخر . . . . وبتفكك عقلية الأمة الواحدة أو عقلية الرأى العام الموحد إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة ، يتم تفكك الشخصية لأمة من الأمم . . . . وإذا تفككت شخصية أمة فمعنى ذلك انحلالها وموتها . »(١)

ووسيلة الحكيم لتربية الرأى العام هى توحيد الثقافة الأولى ، وتوحيد

---

(١) فن الأدب ص ١٨٢

المحيط والنظرة إلى الأشياء . فني الغرب يقوم المنزل والمدرسة والمجتمع بهذه المهمة . أما عندنا فالمنزل لا يقوم بشيء على الإطلاق اللهم الا فى محيط ضيق وبين فئة من الناس . فان الفقر الملم بمعظم المصريين ، وانشغال الرجل بكسب عيشه — قسطا كبيرا من الوقت ، لا يمكنه من متابعة نشاط أولاده ، بالاضافة إلى جهل الأم فى معظم الاحيان — والمدرسة لا تعدو أن تكون مبانى تشيد ، وتلاميذ يحشرون فيها حشرا ، ليدخل فيها مدرسون لا تمكنهم ظروفهم فى الغالب من تأدية رسالتهم التربوية . والبرامج المدرسية إن هى إلا معلومات توضع فى الكتب دون أن يسأل واضعوها أأثارت تفاعلا فى أدمغة التلاميذ أم لا ، بل إن على هؤلاء أن يستظهروها ليلقوا بها إلى أوراق الإمتحانات ولينسوها من بعد ذلك . لا أمل إذن فى قيام المدرسة المصرية بمهمة التنسيق الاجتماعى وتقريب وجهات النظر بين المواطنين من شتى البيئات ، حتى يعاد النظر فى البرامج المدرسية على نحو خاص ، فتصبح أقرب إلى تحقيق أهدافنا ، وتفتح المجال واسعا أمام تنسيق التفكير العام ، وحتى يعد المعلمون إعداداً خاصا ، لا إعدادا مبتسرا كما هو الحال فى الوقت الحاضر .

أما محيطنا الثقافى فتنقصه تغذية الوعى الفنى العام . فمن اليسير أن تجد « الشعور العام » الموحد ، ولكن من العسير أن تعثر على « الذوق العام » الموحد . ذلك لأن الشعور العام يصدر عن الضمير . والضمير قلما يختلف بين إنسان وإنسان . أما الذوق فيصدر عن المدارك ، وهذه تختلف بين طبيعة وطبيعة ، وبين ثقافة وثقافة [1] والوعى

(١) فن الأدب

العام المتذوق هو الذى يغرى الكتاب والفنانين بالإخلاد إلى الفن الرفيع دون أن يخشوا عدم الاستجابة بينهم وبين جمهورهم، أو محاولتهم الانزلاق إلى المستويات الدنيا. كما أن الأدب الفنى الراقى هو الذى يساعد بدوره على رفع المستوى العام. ومن المؤسف أن نجد الألوان المختلفة من نشاطنا الثقافى تميل إلى الهبوط نحو المستوى الأدنى: وقد يرجع ذلك إلى أن المشتغلين بالفنون والآداب وشئون الفكر يخشون انقطاع الصله بين رسالتهم والجمهور العادى. ومع ذلك فالفن الراقى موجود، بل يجب الإكثار منه، وتوجيه الناس إليه، وتبسيط أفكاره لهم؛ حتى يجىء الوقت الذى تبنى عليه نهضة أخرى عندما يقوم المجتمع، وتقوم المدرسة بقسطها من حيث تربية الوعى العام.

يضاف إلى ذلك كله، وجود تلك المعتقدات التى تخلفت لدينا من عصور الظلام، والتى لاتزال تفعل فعلها فى تفكير العامة وكثير من الخاصة. لاتزال الخرافات ترتع فى الطبقات الدنيا الكثيفة من الشعب، مما نلاحظه حتى فى الكثيرين ممن أمكنهم تلقى جانب لابأس به من التعليم التقليدى. ومن المؤسف أن تجد كثيرا من هذه الخرافات قد ألصق بالدين، ونحن نعلم أن الدين فى جوهره براء من كل ما يلصق به من هذا الوهم. وكانت الصعوبة الكبرى فى القضاء على هذه الخرافات، أن ارتباطها فى ذهن العامة بالأفكار الدينية التى لا تقبل جدلا لديهم، قد مكن للمستفيدين من الأوضاع العتيقة أن يشنوا الحملة الناجحة فى معظم الأحيان ضد كل تجدد والواقع

أن الأمر فى هذه الناحية يحتاج إلى شجاعة ومرونة معا ، فلا يجوز أن نسمح بترك علاج هذه المسائل للزمن وحده . ولعل بادرة قد ظهرت كان لها وقع حسن فى نفوس المثقفين والمتحررين ، حين كتب الأستاذ خالد محمد خالد[1] — وهو من رجال الدين — منددا بالكهانة والمعتقدات الدينية المتخلفة عن عصور الجهل . على أنه ليس من السهولة أن تقضى على التقاليد المقررة المتخلفة من الماضى المظلم ، لأن بقاء القديم على قدمه رسخه فى الأذهان أضفى عليه قدسية غامضة . والشرقيون على العموم إلى عهد قريب أبغض الناس إلى فكرة الحركة فى كل ناحية ، وذلك لأيمانهم بالقضاء والقدر إيمانا غير رشيد . كما أن مرجع ذلك فى رأى الرجعيين والجهلاء والمتجاهلين : أن ما تعرفه واعتدته خير مما لا تعرفه ؛ وخاصة إذا كان آتيا من الغرب الذى يقرن فى أدمغتهم الكليلة بالإلحاد والإباحية وفساد الأخلاق .

ومكمن الرجعية ومناصرة القديم لمحض أنه قديم كان أحيانا فى بعض أشياخ الأزهر الذين يفسرون الدين كما يفهمونه لا كما يجب أن يفهم . والواقع أن الكتب الصفراء الجافة قد حجرت عقولهم ، وضيقت أفقهم . كما أن علماء الأزهر فى عصورنا الوسطى قد اعتادوا أن يكونوا المتكلمين باسم الشعب ، المتوسطين له لدى حكامه ، ونجد بعضهم اليوم يحاولون أن يسترسلوا فى هذه المهمة التى عفى عليها الزمن بعد أن زالت الظروف التى كانت تعطيهم

(١) « من هنا نبدأ » .

مثل هذا الحق . فنحن الآن فى مجتمع حديث منظم مفروض فيه أن يمنح كل فرد حق الكلام فى شأنه والتعبير عن رأيه . ولكنه التشبث بالقديم ، وفى ثناياه التشبث بالمراكز المكتسبة والحقوق المغرية .

ولا أحد ينكر أن الأزهر قد أدى للعلوم الإسلامية خدمة كبرى . فانه ساعد على وحدة الفكر فى عصورنا الوسطى ، وقام بنصيبه مشكورا جنبا إلى جنب مع جامعات بغداد والأندلس ومدارس الشام . حفظ الأزهر التراث القديم ، ولكنه من الناحية الاخرى لم يساير الزمن ، فكبل الفكر بمعايير خاصة ضيقة لا يصح له أن يعدوها . وفى فترات الانحطاط العام التى ألمت باطارنا الاجتماعى والفكرى ، نجد العلوم الأزهرية تقتصر على الشكل ، وتهتم بظاهر العلم دون أن يعنيها الجوهر ، وتخال الطالب مادة صماء يمكن أن تنقش فيها سطور تلك الكتب الصفراء برمتها دون اهتمام من قريب أو بعيد بتغذية وجدانه . واقتصر الاجتهاد من جانب علماء الأزهر على التعليق والتحشية ، أو روحها والعنعنة الطويلة التى تسئم دون إبراز للقضايا التى تهم الناس فى معاشهم ومعادهم . ولم يخرج لنا الأزهر فى الأحقاب الأخيرة عالما فحلا يمكن أن يدانى بعض علماء العصر الذهبى للحضارة الإسلامية من المتكلمين والنحاة والفقهاء . وقد قام محمد عبده بمجهود كبير لزحزحة الأدمغة الأزهرية عن جمودها ، ولكنه لم ينجح النجاح المرموق ، فقد تصدى له الأشياخ من كل جانب .

حقا لقد بنيت المبانى الأزهرية الشاهقة ، وحقا لقد انتهت أيام الحصر

والجراية والأَروقة ، وحقا لقد سمح لبعض طلبة الأزهر بارتداء الملابس الإفرنجية ، وأقحمت عليهم العلوم الحديثة التى يستظهرونها كما يستظهرون ألفية ابن مالك ، إلا أن السطحية هى السطحية ، وإلا أن الاجتهاد قاصر فى ميادين اللفظ والمغالطة .

وقد شهد الأحرار والمجددون محنة فكرية أثارها بعض علماء الأزهر ، بشأن الدكتور طه حسين ، ذلك الرائد الأول فى إرساء الطريقة العلمية الحديثة فى النقد الأدبى . عندما نشر كتابه « فى الشعر الجاهلى » فأحدث ثورة من الجدل لعبت الأَهواء السياسية دوراً فيها . اتهم طه حسين بالشك فى الدين الإسلامى ، وأنكر ما اتهم به ، فكتب إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (١) . ومع ذلك فقد ظلت الصحف الحزبية والرجعية تهاجمه هجوما عنيفا ، كاد يعصف بالجامعة المصرية فى بدء عهدها . صراع عنيف ، يكاد يشبه من بعض جوانبه ذلك الذى حملت لواءه البابوية فى العصور الوسطى لتنكل بطلائع النهضة وتتعقبهم حتى تخنق أنفاسهم أو تقضى على أفكارهم . ولكن المظهر فى ناحيتيه يختلف فى تفاصيله . فالبابوية كانت فى العصور الوسطى ذات ظلال رهيبة ، وذات تنظيم محكم . لها سيطرة كبرى على الأمراء والملوك ، ولها نفوذ روحى ضخم فى عقول الناس . فكانت تستطيع أن تقضى على أعدائها بسهولة . أما كتل الرجعيين فى الشرق ، فلا تملك إلا الالتجاء إلى

(١) سامى الكيالى : مع طه حسين .

الرأى العام ، وهو قد أخذ يخذلها فى أزمة الفكر الشرقى الراهن ، فان الرأى العام الشرقى قد جنح إلى تكوين آرائه بنفسه خصوصا وأن الدين الإسلامى لم تحتكره يوماً طائفة كما احتكرت البابوية المسيحية فى العصور الوسطى .

وكانت معركة طه حسين بداية عصر جديد ، أو مرحلة فى دورة تطورنا الحديث . ويكفى أنها ألقت خميرة الشك فى النفوس — الشك ليس حبا فيه ، ولكنه الشك الديكارتى الذى يهدم القديم ليصل إلى الحقائق عن طريق العقل وحده .

ولكن مجهود طه حسين لم يكن كافيا وحده ، فهو لم يتناول سوى زاوية واحدة من زوايا المجتمع — أعنى الأدب وما يتصل به من نقد علمى وبقيت الألوان الاخرى التى لم تمسها يد ، فكان لابد من تعاون طليعة النور جنبا إلى جنب فى طريق الحرية والتطور . ونزل الحكيم إلى الميدان فكان رائدا آخر . استغل الصحافة ومؤلفاته ليمس النواحى الراسخة فى مجتمعنا كله ، وليلبس الأدب ثوب الفن ، وليهاجم أوكارا للرجعية والسطحية فى عقر دارها ، ثم ليدخل الطريقة الفنية فى الفكر كله . ويكفى أن نسجل له فى تاريخ فكرنا الحديث أنه أول من وضع السيرة النبوية فى قالب الحوار كلون فنى ، ووضع كل شىء تحت مصباح الطريقة الذهنية الفنية .

شن الحكيم حملة واسعة المدى لأصلاح النظام البرلمانى وحملة لإخراج المرأة من (حريمها) المعنوى ، وحمل على تعدد الزى الذى هو فى الواقع الناحية الظاهرة لتشتت تكويننا الاجتماعى . حمل على الطربوش ودعا إلى

لبس القلنسوة أو البيريه — التى لبسها الجيش بعد ذلك — فكان من العجيب أن يتهم فى هذا المقام بأنه متعد على الوطنية ، فهاجموه قرنوا الطربوش بالقومية ، مع أنه أصلا لباس تركى نسائى لا يقى حرا ولا بردا ولونه وزره يوحيان بالزينة أو الهزل لا بالجد أو العمل . وقد علق على ذلك بقوله : « الشعوب الحرة القوية هى فى الغالب أوسع الشعوب صدرا وعقلا . إن مسألة الزى الأوربى مثلا أو لباس الرأس لم تصادف فى اليابان أى صعوبة أو إشكال ... وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة ، لم نسمع يابانيا ذكر كلمة « القومية » أو « الوطنية » ، وهو يرتدى الزى الأوربى ، لأنه ما خطر قط بباله وهو يلبس القبعة أنه سيخلع قوميته . أما الشعوب الضعيفة فتتوهم دائماً أن حريتها أو قوميتها أو عبقريتها ستخلع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو رداء . فهى تنفعل وترتعد وترتاب لمجرد المظاهر والألفاظ والكلمات .. والعلاج هو حرية الكلام حتى يألف الناس الألفاظ ولا يرتاعوا من الكلمات . وحرية الفكر والعمل والتصرفات ... حتى يعتاد كل فرد احترام رأى الآخر وعمله وتصرفه ، دون أن يكون مضطراً إلى اتباعه »(١)

هذه الحرية عنده هى البلسم الشافى لكل الأدواء الاجتماعية والفكرية فهى وسيلة التقدم فى الجماعات وهى وسيلة خلق الذاتية فى الأشخاص « فاذا أعطيت شعبك كل شىء وسلبته حريته فانك لم تعطه شيئاً(٢) »

ومنذ الأزل لاتزال تطالعنا قصة الكفاح بين الحرية والنظام سواء أكان ذلك فى التربية أم فى السياسة أم الفكر . قصة هذا الكفاح

(١) حمارى قال لى ص ٥١ — ٥٢ (٢) حمارى قال لى ص ٣٥

هى تلخيص للصراع بين الفرد والمجتمع ، فطوراً يتغلب الفرد وطوراً يتسلط المجتمع . والصراع الفكرى والسياسى الحديث إنما هو صراع بين الحرية والنظام . فالمجتمع الديمقراطى يناصر الفرد ، والمجتمع الفاشى أو الشيوعى يناصر المجتمع ، وينادى بأن الفرد إن هو إلا شظية من شظايا المجتمع لا ينبغى أن يكون لها كيان إلا من حيث تلاشيها وفنائها فى (المجموع المطلق).

على أن التطرف فى الحرية بمعناها الفردى يؤدى إلى الفوضى ، كما أن التطرف فى النظام حتى يصل إلى حد الكبت فيه مضيعة لشخصية الفرد . وقد سجل لنا التاريخ أدواراً انتصرت فيها الحرية فوصلت إلى الإباحية ، كما سجل أيضاً أدواراً أخرى انتصر فيها النظام فشل حركة الفكر . ولعل التوفيق بين الطرفين فى مصلحة الجانبين — أى الحرية فى إطار النظام الاجتماعى . ولعل ذلك هو ما فهمته الأمم الناهضة ، ولعله السبب فيما وصلت إليه من تقدم بتشجيعها ما فى المجتمع من كفايات فردية متنوعة .

ويعود الحكيم فيطبق هذه الحرية التى آمن بها على الأدب والفن . وهو يرجع تأخر الادب العربى إلى سجن أدباء العربية فى سلاسل الحلية اللفظية والمهارة اللغوية مما كاد يقتل النثر العربى نفسه « فاللغة لدينا هى شبح الأدباء المخيف . نحن عبيد ذلك الميراث من الألفاظ والعبارات والتراكيب التى وجدناها داخل صناديق المعاجم العتيقة وكتب اللغة القديمة . . . إننا ننظر فيها بحرص خشية أن ينفذ اليها نور هذا العصر أو نسيم هذا الزمن فيعبث بنسيج عنكبوتها المقدس ! يا الشبح القدماء المروع ! يا لشبح الأموات الذى يرهب كل من يعتبر اللغة كائنا حيا

يتغير ويتطور ، وكل من يحاول التصرف فيها طبقا لمطالب العصر وروح الزمن[١] ويخلص من ذلك إلى الثورة على الشكل اللفظى فى الأدب، والمناداة بالانطلاق. فالكاتب التافه هو الذى ليست لديه أفكار فيلجأ إلى الحلية اللفظية أما الكاتب ذو الأفكار فيلقى بها مرسلة لتتخذ طريقها إلى عقل القارىء ومتى كان الأدب ذا أفكار ، فانه بالتالى ذو رسالة .

ومهمة الكاتب لديه ليست مجرد إقناع القارىء بأى وسيلة ، بل فى حمله على التفكير معه . ومن هنا يكون الأدب طريقة إلى إيقاظ الرأى. فالكاتب لا يريح القارىء أو يلهيه ، إنما على القارىء أن يطوى الكتاب فتبدأ متاعبه . فالكاتب مفتاح للذهن يعين الناس على كشف الحقائق والمعارف بأنفسهم لا أنفسهم ، ومهمته تربية الرأى ، « وكل كاتب لا يثير فى الناس رأيا أو فكراً أو مغزى يدفعهم إلى التطور أو النهوض أو السمو على أنفسهم، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقر فيهم غير الاطمئنان الرخيص، ولا يوحى إليهم إلا بالإحساس المبتذل . ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا فى التسلية الساقطة ، والملذات السخيفة ، التى لا تكون فيهم شخصية ولا تثقف فيهم ذهنا ، ولا تربى فيهم رأيا ، لهو كاتب يقضى على نمو الشعب وتطور المجتمع ، إن واجب الكاتب يحتم عليه أن يحدث أثراً سامى الهدف فى الناس ، وخير أثر يمكن أن يحدثه عمل فى الناس، هو أن يجعلهم يفكرون تفكيراً حراً ، وأن يدفعهم إلى تكوين رأى مستقل وحكم ذاتى »[٢]

---

(١) زهرة العمر ص ٢٣٤ (٢) فن الأدب ص ١٧٩ .

ورسالة الأدب لديه فى جوهرها هى نفس رسالة الفن والفكر، لا تهدف إلى نصرة الروح على المادة أو نصرة المادة على الروح بمقدار ما تهدف إلى إقرار التوازن بينهما بانماء هذه الحيوية فى كل منهما(١). فاغفال أى حاسة من حواس الإنسان الحى هو إقفال باب من أبواب المعرفة، فالأدب أو الفن أو الفكر لا يقوم أى واحد منها على العقل وحده، وإنما يعتمد على الروح وعلى الحس وعلى الوجدان وعلى التأمل. وكلما أثر لون من هذه الألوان فى قدر أكبر من الحواس والمشاعر، كلما كان ذلك أغنى فى التجربة الفنية.

كذلك ليس الابتكار، فى أى لون من هذه الألوان الثلاثة، أن تطرق موضوعا لم تُسبق إليه، ولا أن تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك. إنما الابتكار فيها هو أن تتناول الفكرة التى قد تكون مألوفة للناس، فتسكب فيها من أدبك، وفنك ما يجعلها تنقلب خلقاً جديداً، أو تعالج الموضوع القديم المطروق. فاذا هو يضىء بين يديك بروح من عندك. الإبتكار عند الحكيم هو أن تحقق ذاتيتك، هو أن تكون أنت... هو أن تحقق نفسك، هو أن تسمعنا صوتك أنت، ونبرتك أنت... فالفنان أو الأديب ذو الشخصية يبتكر حتى وهو يريد أن يقلد. والفنان الذى لم يستقل بعد بشخصيته يقلد وهو يريد أن يبتكر(٢)

وقد ابتكر هو أيما ابتكار، فنقب فى الآثار القديمة، وعثر على موضوعات بعضها مطروق سواء فى الشرق أو فى الغرب، ولكنه أعاد

---

(١) انظر زهرة العمر (٢) فن الأدب

صياغتها بعد أن نفث فيها من روحه هو . كم سمعنا عن سليمان الحكيم وشهر زاد وأهل الكهف وكم سمع أهل الغرب عن بيجماليون وأوديب ، وكم كتب الكتاب فى الشرق والغرب عن محمد صاحب الرسالة الاسلامية، وكم طالعنا أشعب فى دنيا الطرائف والشراهة ، ولكنك عندما تقرأ هذه الموضوعات بعد أن أعاد الحكيم صياغتها تحس أنك أمام خلق جديد ليس فى موضوعه ، ولكن فى طريقة صياغته ، وألوان التفكير التى تطالعك حين تقفل هذه الآثار الأدبية التى تحملك على التأمل فتبدأ متاعبك.

ثم يتساءل من بعد ذلك : هل للأدب أن يخدم أغراضاً أخلاقية واجتماعية ، أو يقتصر على المتعة الفنية وحدها ؟

بالطبع لكل من شقى السؤال مناصرون . فطائفة تقول إنه ينبغى للفن أن يكون أخلاقياً واجتماعيا . وطائفة أخرى تقول بتحرر الفن حتى من الاخلاق ، لأن الجمال ينبع من الإتقان وأن الإجادة فى تصوير الدمامة والرذيلة لا تقل فضلا عن الإجادة فى تصوير الحسن والفضيلة . والحكيم ينتصر للطائفة الثانية نظراً لأنه شديد التمسك بحرية الفن شديد الادراك لقدسية هذه الحرية . « فلا أتصور فناً لا يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة، ولا يبرز القبح كما يبرز الحسن . . . وأن الدين أيضاً فى تنزيله يصور لنا رجس المشركين وإثم الكافرين وقبح الأشرار والمفسدين ، كما يبرز لنا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين . . . ولكن المقصود ليس حرية

---

(١) انظر فن الأدب .

التصوير .... فهذه مكفولة فى الفن ملحوظة فى الدين . . . إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذى ينقله الفن والدين فى النفوس . »[١]

وهذه النزعة الفنية فى الأدب والفكر هى التى تجعله يغلب انطلاق الفنان والأديب على كل عامل آخر ، وإن تعددت نواحى نشاطه . فالناحية الفنية هذه هى التى تجعل الأدب باقيا لا فى الماضى وحده ، ولا فى الحاضر ، بل فى الغد أيضا وبعد آلاف السنين مادام الإنسان إنسانا . ومادام رقيه الذهنى بخير لم يصبه نكاس . فالإنسان الأعلى هو الذى يصون « الجمال الفنى » عن الاستغلال الأرضى فى أى صورة من صوره ، ويحتفظ به لمتعته الذهنية وثقافته الروحية . « إن الإنسان الأعلى ليس ذلك الذى يضع كل شىء فى فمه . ولكن ذلك الذى يشعر بحاجته إلى متع معنوية وأغذية روحية وأطعمة ذهنية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بضرورات حياته المادية أو الجثمانية . هذا هو الفرق الوحيد بين الإنسان والحيوان . كل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات أنه يرتفع إلى الغاية بأشياء معنوية لا تتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية . وهذه الأشياء سماها فيما سماها : الفن والأدب . وحرص على أن تبقى قدر المستطاع بعيدة عن تفاهاته الأرضية لتذكره من حين إلى حين أنه ليس حيوانا . وهنا عظمة الفن والأدب »[٢]

ومع إيمانه بهذه النزعة فاننا نجدها لا تحجب النزعات الأخرى عنده وعلى رأسها النزعة للكتابة القومية والاجتماعية . نجد ذلك واضحا فى (عودة

---

(١) فن الأدب ص ٧٢ (٢) تحت شمس الفكر

الروح) و (يوميات نائب فى الأرياف) وفى (شجرة الحكم) و (مسرح المجتمع) . هذه القطع الفنية فى وضعها هى فى نفس الوقت جزء منتزع من جسم المجتمع الحى ، تصوره أصدق تمثيل ، وتغمز بين ناحية وأخرى بأراء اجتماعية أخلاقية ، وتخلص فى مخيلة القارىء إلى أهداف إصلاحية واضحة . خذ مثلا (مسرح المجتمع) تجد أنه قد استلهمها من اتجاهات المجتمع المصرى بعد الحرب الأخيرة حين اتجه أكثر الناس إلى نشاطهم الداخلى فى مضمار التقدم الشخصى أو المنافسة العامة ، فأصبح للمال وسلطانه والسعى إلى طرائق جمعه وتدعيمه الاهمية الكبرى . فمن رجال شركات وأعمال وأثرياء حرب إلى تقلبات سياسية . . . ومقتضيات الحياة العصرية مما له أثره فى تصرفات الناس فنجم عن كل ذلك أنماط من الأخلاق تساير رغبة الطموح وتتابع سرعة الوصول . كما أن المرأة أصبحت لا تقنع بالسفور بل سعت إلى أن يكون لها مكان بارز فى السياسة والحياة العامة وأن تحصل على قدر أوسع من الحرية . كل ذلك تجده فى هذه المسرحيات الضخمة التى يؤكد هو أنه ما من قصة منها خلت من مشهد على الأقل انتزع بالفعل من واقع الحياة بمن فيها من كثرة تساير التيار وترغب فى الوصول ، وقلة قليلة تصمد وتتمسك بالمثل العليا مهما كان من أمرها ونتائجها .

ولكنه يعود فيؤكد مع ذلك أنه لا يتوخى الإصلاح الاجتماعى بمقدار ما يتوخى الخلق الفنى فى المحل الأول ، وذلك لإيمانه القوى بحرية الفن . فالأدباء فى رأيه ليسوا مصلحين اجتماعيين ، بل هم مصلحو المصلحين ، وإن

كان لهذه القاعدة استثناء ، فقد جمع بعض الأدباء بين دولتى الحكم والقلم ، وحاولوا من ثم أن يخرجوا أفكارهم الإصلاحية إلى حيز العمل ، وهم عنده إنما يفعلون ذلك باعتبارهم شخصيات عظيمة مفكرة من واجبها أن تبدى آراءها فى المسائل الكبرى ، لا باعتبارهم فنانين يسخرون فنهم فى ميادين الشئون اليومية . « نحن (الشرقيين) تبهر عيوننا كلمة (مصلح) بقدر ما نستهين بكلمة (فنان) . . . . كلا ! لا ينبغى أن نمـــلى على الفن انجاها بعينه . ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الإصلاح الوقور . . . . إلا أن يشاء هو ويرضى . . . . لأننا إذا أرغمناه سخر منا وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أثواب مساخر ، وقلب بسحره أثواب الهزل خلودا تنحنى أمامه الجباه على الرغم منها . . . . إن الفنان ليس مصلحا ولكنه صانع المصلح . كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة ما كونهم وهيأهم لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء وشعر الشعراء وفن الفنانين . إن الفنان هو مصلح المصلح ولا شىء غير ذلك . أما أن ينزل إلى الميدان يناقش ويدافع ويهاجم وينافح . فهذا لم نره حتى الآن فى فن استحق البقاء فى أى أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات . »[1]

وفى ثنايا ذلك كله نجده يعزو تأخر حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر حتى اليوم إلى تقصير الكتاب والأدباء ، فان الأدب فى رأيه لم يكن عندنا حتى وقت قريب سوى حلية عاطلة فى معاصم الأدباء الذين كانوا يعيشون لا فقط على

---

(١) تحت شمس الفكر ص ٧٠ وما بعدها

هامش المجتمع بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه والثراء. فلم يكن الأدب فى مصر أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقا توقظ النائمين. ولكنها كانت معارف ينعس على أنغامها المترفون.. أما هو نفسه فقد كان فى طليعة من تصدو للكتابة الاجتماعية، فلم يترك شيئا باليا من مجتمعنا إلا سلط عليه طريقته الفنية فى وضوح وصراحة[1] وإنه فى هذا المجال يكاد يشبه «إبسن» فى دورة من دورات التاريخ الأوربى. فهو يندد بأصنامنا السياسية والأخلاقية تنديدا هائلا فى أسلوب ساخر يقرؤه الجميع. ولا يدع سوأة لنا إلا كشفها بقلمه لكى تبدو عاريه أمام الأسماع والأبصار، فهو هنا يخاطب العاطفة والعقل، ثم يأخذك من حيث لاتدرى إلى برامج يمهد لها مستوحيا مثله الأعلى دون اكتراث برأى أحد.

نجده قبل كل شىء يدعو إلى التحرر من التقاليد البالية فى كل مايمس كياننا الاجتماعى، ويحارب العزلة الذهنية ويدعو الى الاندماج فى المجتمع العالمى. ونجده كذلك يحدد المسئولية فى كل ماوصلنا إليه، ويحملها لكل من الرؤساء فى المحل الأول ثم للشعب ذاته الذى يطالب بحقوقه، ويؤكد أن فى الإمكان صنع الأعاجيب لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم بالأخلاق وصدق تقديرهم للمثل العليا.

---

(١) لاتناقض بين مناداته بالفن الحر وبين التزامه هو فى مؤلفاته بالأصلاح. لأن جوهر فكرته هو: ان الفن لايلتزم إلا بأرادته ورضاه، لا بأرادة مفروضة من خارجه.

فى المجتمع

أتى إلى مصر بعد رجوعه من أوربا فهاله أمرها . ولو لم يذهب إلى أوربا لكان قد سار فى الطريق المألوف ، وتكيف له وعاش بنظرة الآخرين. ولكنه أتى إلى بلاده مثلما أتى رفاعه الطهطاوى من قبل : طفت الكأس عند كليهما عن طريق المقارنة والتسجيل والنظرة الجديدة . ولا بد للكأس متى امتلأت أن تفيض ، وإذا فاضت فلا توجد قوة تحد من تدفقها .

ذهب إلى أوربا بعد ان حصل على ليسانس الحقوق وسجل اسمه فى جدول المحامين ، وعاش فى باريس فنانا ، ورجع إلى مصر فيلسوفا ينظر إلى مجتمعنا المصرى نظرة تجديدية فيرسم له المثل الأعلى فى صراحة ووضوح . وقد تكون دعوته شديدة الوقع على طائفة المحافظين والمتزمتين، وقد تكون مهددة لطائفة المنتفعين من القديم ، ولكنها ستسير قدما . فقد ألقت البذرة ، ولا يهم ما إذا كان الغرس سيونع فى أيامنا أو إذا كنا سنلتقط منه الثمار . إنما المهم أن التيار الجديد أصبح أمرا واقعا بالفعل ، وهنا تصدى الحكيم فى أكثر من موضع لتوجيه الجيل الجديد فى كل مرة لأنه مؤمن إيمانا كبيرا بترابط الأجيال .

وغلطة الكثيرين منا أنهم يحاولون سبق الزمن ، فيودون أن تنصلح أحوالنا فى فترة وجيزة ، دون أن يتركوا التاريخ يسير فى مجراه الطبيعى مهما

يكن الزمن الذى تستغرقه دورة التطور فى طريقها الصحيح . وإنما المهم فى مشكلتنا الاجتماعية أن نكون واقعيين ، فنحدد أمراضنا أولا ثم نعمل على إصلاحها بتؤدة طبقا لأفكار واضحة الهدف . فقد جربنا كثيرا مصائب الارتجال والدعايات الفارغة التى لم تتقدم بنا اجتماعيا فى مجال العمل .

ونظرة متعمقة إلى المجتمع المصرى تجده مغموراً إلى حد كبير فى انحلال الماضى ، والتماسك فيه معدوم إلى أبعد الحدود . ينقسم مجتمعنا إلى شقين : سكان الريف وسكان المدن .

أما سكان الريف فهم غالبية الشعب ، ومع ذلك فهم يعيشون على هامش المجتمع ولا يساهمون بنصيب ملحوظ فى نشاطه . والسبب فى ذلك هو الفقر الملم الذى يحيط بهم فى ظل الركون إلى أساليب أجدادهم فى تحصيل العيش : أى الزراعة بأدواتها البدائية . والزراعة لا يمكن أن تفى وحدها بمطالب مجتمعنا الحديث الذى تضخم عدد سكانه ، وأخذت تتغلغل فيه الطرق الحديثة فى الاستغلال الزراعى وخاصة فى الضياع الواسعة . ثم إن الملكية — كما قرر معظم الاقتصاديين — موزعة توزيعا غير متكافىء ، إذ تنفرد بها نسبة ضئيلة من عدد السكان . ومن الفقر يتطرق الجهل ، والمرض ، وهما الحليفان اللذان يعيانه على الفتك بمجتمعنا وإبقاء جزء كبير من أبنائه معطلين عن المساهمة فى أوجه نشاطه .

وأما سكان المدن فهم الأقلية ، وهم الذين يوجهون مصائر البلاد لمصلحتهم وحدهم فى أغلب الأحيان ، وخاصة أصحاب النفوذ من رجال

المدن الكبرى وما فيها من حركة تجارية وصناعية . ومع ذلك فالمدينة المصرية لم تنشط إلا فى عهد حديث نسبيا ، وإن تكن فى نشاطها متروكة لهمة الأفراد لا لتوجيه الحكومات . والنشاط الذى أخذ يدب فى المدن يكاد يشبه ذلك النشاط الأوربى الذى تلا حركة الانقلاب الصناعى ، فأخذت مدننا الكبرى تمتص عدداً من سكان الريف الذين ينضمون فيها إلى زمرة العمال فى المصانع . على أن ازدياد عدد العمال ، وتهاون أصحاب العمل فى استيحاء روح العدالة الاجتماعية فى معاملتهم قد أدى إلى قيام حركة عمالية نشيطة ولو أنها لم تزل بعيدة عن التأثير فى الحياة العامة ، لضعف وعيها ولحداثة عهد المجتمع بالصناعة ، والمشكلات الصناعية والعمالية .

وإلى جانب ضعف التماسك بين المدن والريف ، نجد ضعف تماسك من نوع آخر : بين المرأة والرجل . فالمرأة لاتزال تعيش على هامش الرجل فى حياتنا العامة ، ولم تتمكن إلا فى نطاق محدود من الاشتراك فى نشاطنا الاجتماعى العام . وإلى جهل الأم يمكن أن نرجع ضعف أجيالنا الراهنة ، فالأم — على حد قول حافظ — مدرسة إن أعددتها أعددت الشعب نفسه .

ويرجع الحكيم عدم تماسكنا الاجتماعى إلى طبيعة نظام الإقطاع الذى فرض على الشرق عامة ومصر خاصه إبان حكم المماليك ثم فى ظل الدولة العثمانيه . فالإقطاعيون فى هاتين الفترتين أجانب عن البلاد ، ينظرون إليها

على أنها البقرة الحلوب التى تدر عليهم الثراء ولو دفعته لهم من ذات كيانها . ونساؤهم جزء من المتاع ، ليست لهم رسالة اجتماعية ، بل كل مهمتهن جلب المسرة والمتعة لأزواجهن وسادتهن ، مع تحقيق سنة الطبيعة الخاصة باستمرار النوع . هذا السبب المزدوج عنده هو أصل كل أدوائنا الاجتماعية .

حقا لقد زال الإقطاع كما كان عليه فى عصورنا الوسطى ، ولكن حلت محله قيم أخرى لاتختلف فى طابعها العام عن منطق السادة . وحقا لقد استطاع قاسم أمين أن يزيح الحجاب عن المرأة المصرية ، وأن يخرج بها من عالم الحريم والرقيق . ولكنها لاتزال فى حاجة إلى داعية جديد ينفض عنها حجابها المعنوى ، فيدفعها دفعا إلى ميدان العمل المنتج بما يوافق طبيعتها وإمكانياتها ، فينقلها من عالم الأزياء والأصباغ والتقليد السطحى إلى مهمتها الخالدة : تكوين النشء الجديد ، والعناية بمنزلها ، والاشتغال بشؤون الإصلاح الاجتماعى .

ويقارن الحكيم تطور الإقطاع العربى بتطور الإقطاع الشرقى . تقدم الريف الأوربى وتأخر الريف عندنا ، بأن الاقطاعى الأوربى كان يعيش فى إقطاعه ، ويحنو على فلاحيه باعتبارهم رجاله ومواطنيه ، وهو كبيرهم ، يرفع مستواهم يحسن أحوالهم الاقتصادية . ويخرج معهم إلى الحرب قائدا لهم فى تلك المعارك التى تشعر الجميع بوجوب تماسكهم لدفع العدو المشترك ، أو لتحقيق كسب مشترك . وزوجة الأقطاعى الغربى كانت عنصرا من عناصر ذلك التماسك الاجتماعى ، فهى الساهرة على الفقراء ، الحانية عليهم ، وهى المخففة

لأَلام المرضى ، والمثل الأعلى لنساء الريف اللاتى يقـــلدنها فى العادات الصالحة التى اكتسبتها بحكم ثقافتها ومركزها وتربيتها . « إنها هى باستقرارها فى الريف واتصالها بزوجات كبار القرويين ، عملت على إدخال المثل الصالح فى النظافة والذوق إلى جميع البيوت . لقد كانت هى المرجع الأَعلى لشئون الصحة والبيت. إذا حدث مرض جاءتها النساء يسألنها الدواء. وإذا وقع حدث جئنها يسألنها النصح . إنها المدبرة لشئون البيت والصحة والنظافة والذوق للقرية والمقاطعة كما أن زوجها الشريف هو المدير لشؤون الأمن والقضاء . إنها هى الحاكمه المطلقه لشؤن الحياة الاجتماعيه فى دائرتها ؛ كما أن زوجها هو الحاكم المطلق لشئون الحرب والكسب. هى التى تنظم الحفلات وتعد المجتمعات، وتنشر النماذج الصالحة لكل ماهو جميل... من ملبس وتحف وأوضاع ومراسيم يحتـذيها ويقلدها زوجات الأَثريا من القرويين أَو المقربات من القرويات وهن مشدوهات الأَفواه، مفتوحات العيون . ويذهبن فيتحدثن بهذا فى القرى ويدخلن هذا على أنفسهن وبيوتهن.. إلى أن ذهب نظام الإقطاع ومضى زمن الأشراف ، وجاء عهد الديمقراطية . » فلم يتغير الوضع . فقد حل فى الريف محل زوجة الشريف زوجة المالك الكبير أو زوجة القروى الغنى ، وقد ورثت كل صفات السيدة الشريفة فوجدت من واجبها أن تحتذيها ، وتقوم فيمن دونها من فلاحات القرية مقـام المرشد المعين . أما فى المدن فقد حلت كذلك زوجة التـاجر الموسر والصانع والرأسمالى محل النبيلة وورثت واجباتها ومهامها فى المجتمع ، فأصبحت هى التى تزور الأحيـاء

الفقيرة : تواسى المرضى وتمدهم بالأدوية والنقود. وتحمل اللعب والحلوى. للأطفال . لم يأت عصر فى أوربا تخلت فيه المرأة عن واجباتها باعتبارها سيدة لأنها تعلم أن كلمة سيدة لم تطلق جزافا . إنما هى وظيفة فى المجتمع لها عمل يستغرق وقتا وجهدا . ولها مظهر سيادة وقيادة لمن يحتاج إلى المعونة من أتباعها فى الريف أو جيرانها فى المدن . . . . هنالك تماسك بين الدرجات . هناك نموذج يتبع ومثل يعطى من الطبقة العليا للطبقة السفلى . »[1]

أما الإقطاعيون فى مصر فانهم « ما كانوا يعتبرون الفلاح رجلهم بالمعنى الأوربى للكلمة ، ولكنهم كانوا يعدونه عبدهم بالمعنى الشرقى للكلمة . بل أقل من عبدهم ، فقد كان للكلب والفرس عندهم من الحرمة والكرامة والحقوق ما ليس للفلاح . هذا الفلاح الذى يتكلم لغة غير لغتهم ، ونبت فى أرض لم تكن أرضهم ... ما كان يسمح له بشرف الجندية ولا الفروسية ولا بشرف المصاحبة فى حفل أو اجتماع . . . »

وزوجة الإقطاعى تشاركه شعوره هذا بالنسبة للفلاح ، فهى جارية قد انتزعت من بلادها لتباع فى الأسواق بالثمن الذى يوحيه جمالها ودلالها ومن هنا كان إحتقارها للفلاح صاحب البلاد، ولزوجه وأسرته. وبالإضافة إلى ذلك فان كيان العبودية الذى عاشت فيه ما كان يسمح لها بالإلتفات إلى رسالات إصلاحية أو قيم اجتماعية .

وبذلك انشطرت مصر شطرين بعيدين ، وانقسمت إلى طبقتين لا تمد

---

(١) حمار الحكيم من ص ٩٦ إلى ص ١٠٢

إحداهما إلى الأخرى يداً . وبدا السلّم الاجتماعى على ذلك الشكل العجيب: طائفة فى أعلاه ، وطائفة فى أسفله ، ثم لا شىء بين ذلك غير فراغ . فقد تحطم وزال السلم ما بين الأعلى والأسفل من الدرجات[١] .

وانقضى عهد الإقطاع فى مصر ، وجاءت العصور الحديثة ، فلم يتغير هذا الوضع ، فالمالك الغنى أو الفلاح الموسر الذى حل فى الأرض محل السيد العثمانى ، قد ورثه كذلك فى طباعه وقلده فى ميوله وعاداته . فتزوج هذا الفلاح المالك بالجوارى البيض . وجعلهن فى الحريم . وازدرى أحيانا هو أيضاً أبناء جلدته من الفلاحين . ونسيت زوجته فى إبان غمرة الاتجاهات الجديدة أن لها رسالة إجتماعية هى التى جعلت من المرأة الغربية سيدة بكل ما تعنيه الكلمة . خرجت المرأة المصرية الحديثة إلى المجتمع ، وشاركت الرجل فى كثير من الأعمال ، وهى تنادى اليوم بدخول البرلمان ، وكأن هذا هو الذى قد بقى من المسائل الواجب علينا حلها ! « إنها فى شبه حريم معنوى لا تكاد تحسه ، لأن مداركها المعنوية ما زالت قاصرة ... وأنا مؤمن كل الإيمان بأن بلادنا كلها تنقلب إنقلاباً عظيما عجيباً لو تمت هذه المرحلة الثانية من مراحل نهضة المرأة المصرية والشرقية . خروجها من الحريم « الروحى » ونبذها ما علق بها من آثار الجوارى ، وبلوغها مرتبة « السيدة » التى تخلق شيئاً وتحمى شيئاً »[٢]

هذا هو استكناهه لعلتنا الكبرى: رواسب الماضى سواء فى الريف أو المرأة.

---

(١) حمار الحكيم ص ٩٥ (٢) ص ١٠٢

أما الريف فقد رآه أيام كان نائبا بالأرياف ، وصوره تصويراً لا يزال حافظاً للواقع ، ولا يزال يلبس ثوب الحقيقة حتى يهيىء الله المعجزة فيصبح ريفنا قلب المجتمع النابض . وصفه فى (يوميات نائب فى الأرياف) وفى (عودة الروح) فأدخل تصويره للواقع والحقيقة فى الإطار الروائى فجاء الأثر صادقا . قرأت (يوميات نائب فى الأرياف) مع أحد أصدقائى من وكلاء النيابة ، فقال إن هذه ليست حياة الحكيم فى الريف والنيابة ، ولكنها حياتى وحياة كل (نائب فى الأرياف) وحياة كل فلاح . صور فيها الحاكمين والمحكومين والحياة فى ريفنا الحزين الذى لما كان موضع عناية القادة والزعماء فى الكلام لا العمل ، يتغنون باسمه فى برامج أحزابهم وفى خطبهم المسجوعة . ثم يقفون عند هذا الحد . وقد تمتد يد الإصلاح وئيدة كليلة ، فتحقق من التقدم فى الريف ما يتصل مباشرة بمصالح أولى الأمر ومن إليهم .

وصف لنا الفقر المدقع والمرض الملم والكآبة المخيمة . والناس وأنعامهم ، أو الأنعام وأناسهم — لافرق ! ، والقذارة التى ليست بعدها قذارة . كل ذلك بأسلوب ليس فيه طلاء ، لأنه لايحتاج إلى مجهود لفظى فى توصيله إلى نفس القارىء . فالصورة نفسها معبرة حساسة بموضوعها العارى الذى لايدع مجالا للشكل . إنه يصور بلا «رتوش» — وإن مال إلى جانب السخرية اللاذعة . وكما أن المصور لايحتاج إلى رتوش حين تكون الصورة جميلة فى الأصل ، فان الحكيم فى هذا المجال يبرز القبح إبرازا واضحا لا أثر

للتكلف فيه . وهو إذ ينادى — كما ينادى غيره — بعدم إهمال الأَصلاح لدولا بنا الحكومى والاجتماعى إنما ، يدفعه إلى ذلك شعور مرهف وإحساس قوى ، ورغبة فى تشييد مجتمع راق متماسك ، يساهم فى بنائه جميع أبناء البلاد لافرق بين ريفى وحضرى، سيد ومسود . أى أنه فى هذا المجال من كبار دعاة العدالة الاجتماعيـة وتكافؤ الفرص ، وهما المبدآن اللذان يخيمان الآن على تفكير الفلاسفة الديمقراطيين فى قرننا العشرين(١).

ويلتقى معه فى مصر فى هـذا المضمار زميله العبقرى طه حسين الذى خطا خطوة جريئة حين أقر مجانية التعليم وزاد فى ميزانية المدارس وأهاب بالشعب أن يساعده بالسير بالبلاد نحو مجتمع مثقف . وإن كان يؤخذ على طه حسين فى هذا المجال أنه قد حشر التلاميذ حشرا فى المدارس دون أن يعد لهم المدرس الصالح . ولـكنه معذور إذ خاف ألا يطول أمد وزارته فتقضى يد البيروقراطية على مشروعه .

إذا استطعنا حقيقة أن نصلح الريف ونقضى على الجهل والمرض والفقر بأساليب عملية كتلك التى حققها طه حسين وكالتى ينادى بها الدكتور أحمد حسين ، أمكننا فى زمن وجيز أن نصبح أمة راقية تفهم واجباتها وتبطش بجلاديها . ففى ظل الجهل يمكن أن يترعرع الحكم المطلق السافر أو المقنع. وفى ظله تقوم الحياة النيابية الصورية ، ويكثر اللصوص والمرتشون وإن تزيوا بزى الباشاوات والساسة والزعماء . وفى ظله تقوى الفواصـل

(١) كان لمقاله المشهور الذى نشره عام ١٩٣٨ وطالب فيه بأنشاء وزارة للحياة الإجتماعية، أكبر الأثر فى إنشاء وزارة الشئون الإجتماعية عام ١٩٣٩ .

الاجتماعية والحواجز المصطنعة . فهى علل لايمكن أن تعيش إلا فى الظلام ، فاذا أشرق نور العلم والعرفان اختفت جميعها كما تختفى البوم والخفافيش . ومن الخطأ الاقتصار على نشر العلم فى المدن وحدها إذ لا تقدم لمصر إطلاقا إذا ظل أغلب أهلها مشلولين لا يفهمون مجتمعهم ولا يستطيعون أن يشاركوا فى نشاطه .

. . . . . .

والشق الكبير الآخر الذى وجد عناية من جانب الحكيم هو المرأة : تلك التى اختلف الفلاسفة والمفكرون فى طبيعتها وطبيعة رسالتها فى الحياة . فان الكثيرين ينادون بأن هنالك اختلافاً جوهريا بينها وبين الرجل فى العقل والوجدان . فهى عند المسلمين « ناقصة عقل ودين » ، للدرجة التى دعت إلى مساواة الرجل بامرأتين فى الشهادة ، وإلى حصول المرأة فى الميراث على نصف نصيب الرجل . وكانت فى العصور الوسطى المسيحية « حليفة الشيطان » والمحرضة على الخطيئة الأولى حين أخرجت آدم من نعيم السماوات إلى جحيم الأرض .

على أنها لدى علماء النفس والتربية التجريبية لاتقل عن الرجل فى القدرة العقلية فى المتوسط ، وإن لم تستطع الوصول إلى ذروة العبقرية التى قد يصلها الرجل ، أو الانحدار إلى الغباء المجسد الذى قد يصل إليه بعض الذكور . والمرأة عند هذه الطائفة أكثر تحملا من الرجل وأكثر حساسية ورقة ، وإن كان تفكيرها مشوبا بآثار عقد النقص التى توارثها جنسها عبر القرون حين أذلها الرجل وجعلتها قوانينه فى وضع أدنى من وضعه .

وحين فرضت عليها بعض التقاليد الاجتماعية حياة السجن التى قد لا يطيقها حيوان .

هذه التقاليد الموروثة عن آراء دينية وأخلاقية مبعثها أن الصون والعفاف بيد المرأة لا بيد الرجل . ومن أجل ذلك كانت المرأة موضعا للرقابة التى كان البعض يغالى فيها فيخصى خدمه ، ويصنع للمرأة الأقفال التى تغلق وتسمى « لباس العفة » لدى اغتراب رجلها أو خروجه إلى الحرب والترحال . هذه التقاليد وما فرضته من قيود ، مع طبيعة المرأة من حيث هى ملتقى الشهوة ومنجبة الأطفال ، هى التى كيفت تفكير هذا الجنس الجميل تكييفا خاصا فى الدرجة لا فى النوع .

والمرأة عند الحكيم مكملة للرجل ، تدور فى فلكه دون أن تستقل بذاتها وإحاطتها بالرجل مصدر إشعاع ، وحافز للعبقرية ، ومخرج للفن من ظلمات الخمول إلى نور الإبداع وذلك « لأن مجرد وجودها يحدث نشاطا فى الهمم وتألقا فى الأفكار » ، « فان المرأة مثل القمر . . . . . (أقصد معناه الفلكى لا الشعرى) ، فهى لا تشع ضوءاً من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتى إليها من شمس عقل الرجل . هى كالقمر كائن سلبى ، وسطح معتم فى ذاته لا نستطع إلا بما ينعكس على قلبها وعقلها من تفكير الرجل وإحساسه . . . فدنوها منه فى مجال العمل المنتج ، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرآة إلى جانب المصباح . . . . إنها تضاعف نوره وتزيد إشعاعه . » (١)

(١) حمارى قال لى ص ٨٥ — ٨٦

وعلى ذلك فهو من المعتقدين — على أساس الظواهر — بأن طبيعة المرأة أقل مرتبة من طبيعة الرجل . فهى ليست كيانا مستقلا بذاته بمقدار ماهى من مكملات الرجل وملحقاته الطبيعية لا على أساس الاستعباد ، ولكن على أساس الاندماج والتلاشى من كلا الجانبين فى سبيل الأهداف الاجتماعية المشتركة التى يساهم كل منهما فيها بمقدار إمكانياته .

وقد يكون فى فكرته هذه متأثرا بمشاهداته وتجاربه فى مصر وخارجها ، وما رآه فى المرأة على اختلاف طبقاتها وبيئاتها من حرص مبالغ فيه على القشور دون اللباب ، ومن تفاهة فى التفكير لا تخفى حتى تبدو من جديد ، ومن ضيق فى الأفق وأنانية غالبة ، تجعل نظرتها إلى الحياة من زاوية شخصية دون كبير تمعن أو روية . أما أنا فأخالفه فى هذه الناحية إلى حد ما . فقد رأيت أن التفاهة قد توجد فى الرجل قدر وجودها فى المرأة ، وأن الاتزان والاتساق وتكامل الشخصية لا يقل وجوداً فى المرأة عنه فى الرجل إذا ما سمح لها بالحرية الكافية وبالتعليم الكافى اللذين يبرزان شخصيتها ويقضيان على عقد النقص التى ترسبت فى لاشعورها منذ آلاف السنين .

والحكيم قد يقسو على المرأة ، ليس حبا فى القسوة ذاتها كهدف ، وإنما كشفا عن الحقيقة وإيثاراً للصراحة ورغبة فى الأصلاح . وهذه هى الناحية التى أثارت عليه المرأة فى فترة ما فهاجمته هجوما مراً وجعلت منه عدوها . ويعود هو فيقرن ذلك بطبيعة المرأة كما يفهمها «فالمرأة تثور للكلام ولا تثور للفعال . إنها تغضب لكلمة تسمعها ولا تغضب لصفعة على وجنتها .»

ومع ذلك فهو يحاول أن يكمل رسالة قاسم أمين الذى أزاح عن المرأة حجابها المادى، فى حين يحاول الحكيم أن يحطم حجابها المعنوى، فيدفع بها دفعا إلى خضم المجتمع مسلحة بكل الأدوات التى تجعل منها عنصرا اجتماعيا نافعا. فهو يتمنى لها التقدم دائما. ولا يختلف معها إلا فى معنى كلمة «التقدم»: «فهى تفهمها على أنها الجرى فى أثر الرجل واللحاق به وأنا على العكس أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة. فالمسألة فيما يبدو لا تعدو مجرد الخلاف فى الرؤية والنظر. وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين سليمتين ليبصر لنا أيهما هو الذى يسير خلف الآخر»(١)

وإيمانه «بتطور» المرأة المصرية لا حد له، ففيها فضيلة كبرى، هى أنها قديرة على التطور السريع ومن هنا سمح لنفسه دائما بأن يصارحها إلى حد العنف حتى يلفت نظرها إلى مافاتها رؤيته أثناء خطوها الواسع. «يخيل إلى أن السهولة التى تتطور بها المصرية سببها بسيط؛ أنها تحتفظ دائما بطبيعة المصرية القديمة تحت ثياب الجارية العثمانية. فما علينا إلا أن ننبهها إلى خلع هذه الثياب شيئا فشيئا لتبدو حقيقتها الأولى المجيدة: تلك التى كانت تحسن إدارة البيت والمملكة، وتعنى بأمر الفنون وتضع أساس الحضارة. سأتكلم دائما هذا الكلام ولن أكف عنه، وإن تعرضت للسخط العام، حتى أرى المرأة المصرية قد نفضت عنها رداء العبيد والجوارى البيض لتظهر من تحته سليلة نفرتيتى وحتشبسوت»(٢)

---

(١) حمارى قال لى ص ٨١ (٢) حمار الحكيم ص ١١٦ — ١١٧

وهو فى تفكيره الخاص بالمرأة ينظر إليها نظرة مزدوجة : المرأة ككائن اجتماعى ، والمرأة كجنس .

فمن الناحية الاجتماعية المرأة عنده ذات رسالة اجتماعية خاصة : بمشاركة الزوج فى السراء والضراء ، وإعداد جيل الناشئة الجدد ، والمساهمة عن طريق ذلك فى بناء التشكيل المستقبل للمجتمع . ولتحقيق هذا الهدف يجب على المرأة أن تتسلح بكل المعارف الممكنة التى تجعل منها زوجا وأما صالحة . وهو يرجع جلوس الأجيال الماضية فى المقاهى والحانات إلى هروبهم من وحشة المنزل الذى لايحوى غير نساء كالخادمات . « نعم إن المرأة للبيت . ولكنها لكى تكون بحق ملكة البيت وقرة عينه يجب أن تثقف أكمل ثقافة . . . . إن المرأة زهرة البيت وروحه . بل زهرة المجتمع وروحه . . . . ولنذكر أننا إلى اليوم ندفع غاليا ثمن سجن المرأة المصرية فى الماضى : فهى كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدماها ضعفا ، واحمر وجهها حياء ، وتلعثمت وتعثرت فى هزالها النفسى الفكرى ، وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والإشفاق ، وبدت للأعين أقرب إلى الخادمات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاربها ، واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها . . . . إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا كما يقصى الحيوان الحقير جريمة فظيعة هى القتل المعنوى بعينه لا أكثر ولا أقل ، وهى الامتهان لكرامتها ولآدميتها امتهانا يجب أن تثور من أجله وأن تقيم الدنيا وتقعدها ولا تسكت عنه كما سكتت فيما مضى من الأجيال فأن

المسألة مسألة حياتها أو موتها، وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين — والدين براء — لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم . إن عقل المرأة إذا ذبل ومات ، فقد ذبل عقل الأمة كلها وماتت . » (١)

ومن هذه الزاوية نجده يهاجم المرأة التى لا تعرف رسالتها الحقيقية فلا تحسن الحرية المعطاة لها وشيكا وهذا هو جوهر رواية (الرباط المقدس). كما أنه يحارب تلك التى تؤسس أحزابا سياسية، أو تندفع فى الميادين الاجتماعية السطحية ، أو التى قد تغلب عليها الثقافة النظرية فتهمل بيتها .

ولا نعنى بذلك أنه يحرم على المرأة مشاركة الرجل فى كل وجه من أوجه نشاطه . فهى تتلقى من التعليم أكبر قسط تحت قبة الجامعة بالقدر الذى يوسع مداركها ويمكنها من المساهمة فى إعلاء الجيل الجديد دون أن يؤدى بها ذلك إلى إهمال واجبها الأسمى . وهو يخشى أن لا تخرج الجامعة مثيلات لباحثة البادية ولا قريعات لمى . . . ولكنها تخرج شيطانات صغيرات قد أكسبهن الخروج إلى المجتمع والاختلاط بالرجال والاتصال بذوى الأفهام شيئا كثيرا من الفطنة والذكاء ، لأن الذكاء سلاح خطر لا ينبغى أن يوضع فى يد امرأة إلا بعد إعداد روحى طويل . » (٢)

والمرأة كجنس لا تلقى من الحكيم ذلك القدر من الاحترام الذى تلقاه المرأة ككائن اجتماعى . فالمرأة عنده هى المرأة دائما سواء ألبست النقاب

---

(١) تحت شمس الفكر ص ١٤٩ — ١٥٠

(٢) حمارى قال لى ص ٦٩

والخلخال أم الوسام وخوذة القتال . هى منذ آلاف الأعوام تتنفس من إحدى رئتيها بالهواء ، ومن الأخرى بالرياء . ومامن امرأة عنده تطيق حمل رفيع الأفكار أكثر من قدر بسيط معلوم ، يحسن أن تتخلله فترات مداعبات عاطفية ، وتفاهات أو محادثات سطحية . ومن هنا نجده لا يحجم عن إشعار المرأة وهى أمامه بأنها مخلوق تافه حقا .

وبسبب هاتين الزاويتين لنظرة الحكيم إلى المرأة ، خلط الناس كثيرا فى أمر علاقاته بالمرأة ، واتهموه أحيانا بالتناقض إذ هو فى نظرهم يحمل عليها مرة ، ويشيد بذكرها مرة أخرى . وهو يجيب عن ذلك بأنه فى الحقيقة فى كلا الحالين يعتقد ما يقول ؛ « فالمرأة من غير شك هى الزهرة المشرقة فى بستان وجودنا الآدمى ، زهرة لها نضارتها وعبيرها ، ولكن لها أيضا أشواكها . جمال المرأة وفتنتها : تلك هى فى نظرى أشواكها الحقيقية التى تضع فيها كل سموم سلطانها وسطوتها . فالمرأة إنما تشهر علينا نحن الرجال هذا السلاح ، وتقف به فى وجه أعمالنا ، آمرة فينا وناهية ، صائحة بنا أن نقف فى طريقها كما تقف القافلة تحت تهديد قطاع الطريق ، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت وقلب ومال وجاه وشهرة . إنها لتجردنا من كل شىء وتتركنا عراة تحت سلطان سلاحها المسلط المخيف ! . . . . أين هى المرأة الجميلة التى لم تستخدم جمالها فى إخضاع الرجل ؟ كم امرأة فى التاريخ جعلت جمالها فى خدمة « غاية أسمى » من إخضاع الرجل ؟ إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكس سلاح جمالها فى وجه الرجل . إن المرأة مخلوق « غير سلمى » متى وجد فى يدها

سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب . إن المرأة الجميلة هى عدو الرجل المفكر . »[١]

. . . . . .

وهكذا نرى أن إخراج المرأة والفلاح كل من (قمقمه) بمثابة القاعدة فى توجيهات الحكيم الاجتماعية . ويبقى بعد ذلك تنسيق الأحجار الأخرى ووضع كل منها فى المكان الملائم ليكون البناء الاجتماعى سليما متماسكا ومتناسقا .

والإطار العام لهذا المجتمع كما يفهمه يجب أن يغلف بالدين — لا كما يفهمه المتزمتون ، ولكن على أساس النظرة الواسعة والتشبع بروح الدين دون أن يكون فى ذلك عائق فى سبيل متابعة أوجه النشاط الفكرى والاجتماعى الأخرى .

والذى ينظر إلى الدين فى جوهره يجد أنه قبل كل شىء تنظيم اجتماعى فانه فى ناحيته الميتافزيقية قد أثار قدراً كبيرا من الاختلاف خاصة فى العصور الحديثة التى خضع فيها كل شى. للمنطق والعقل .[٢] وما ظهر الأنبياء إلا ليوجهوا شعوبهم خاصة والناس عامة إلى قيم اجتماعية خالصة ، واستعانوا فى تبليغ رسالاتهم بالتخويف من عالم مجهول والترغيب فى سعادة لانهاية لها . ومع قوة عامل الثواب والعقاب فى تماسك الفكرة الدينية ، فانهما

---

(١) تحت شمس الفكر ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) انظر التفصيلات فى كتاب عباس العقاد : الله

ليسا فى حد ذاتهما غاية ، بل هما وسيلة لوصول الإنسان إلى مرحلة يستطيع أن يميز فيها الخير من الشر بدافع من نداءاته الداخلية، وأن يتمسك بالفضيلة والخير كقيم عليا لها مكانتها فى حد ذاتها . والذى لا يفهم الدين على اعتبار أنه شىء إنسانى واقعى ، يقصد إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية بالاستعانة بقيم روحية يكون قد أخطأ فهمه ، ويكون قد فتح الباب لمناقشات بيزنطية لم يصل المفكرون فيها إلى الآن إلى شىء يفيد. هذا إلى أنها كانت من الوسائل التى استغلت لتكبيل المعايير الفردية والاجتماعية فى فترات الانحطاط العام . هكذا كان رجال الدين فى أوربا والشرق فى العصور الوسطى بالنسبة لكل من المجتمعين . أقاموا من أنفسهم حماة للأخلاق باسم الدين . وكانت النتيجة محاكم التفتيش وفساد رجال الدين والظلام الفكرى الرهيب فى الغرب ، واضطهاد الفلاسفة فى الشرق والأندلس .

ولكن التطور لا يعرف قيودا من هذا النوع . فسرعان ما جرفت النهضة الأوربية البابوية ورجال الدين حين ظهر المجددون من أمثال كلفن ولوثر وزونجلى وغيرهم . . واليوم يقوم جان بول سارتر بسحق هذه الطبقة سحقا تاما . فان الإديان لم تنص صراحة على وجود طائفة الكهان والمتشحين بالسواد متى كانت مراميها واضحة وصريحة بحيث يكون الاتصال بين العبد وربه اتصالا مباشرا . أما الكهانة فهى من فعل التطور الزمنى للفكرة الدينية حين تدخل فيها الأطماع والمنافع . وإن محمدا وعيسى قد حاول كل منهما أن يحطم كهانة قريش وأورشليم ، لأنهما أتيا بأفكار لا بطقوس .

وفى ظل الدين الاسلامى قامت تلك الحركة العقلية الكبرى التى أسهم فيها المسلمون من كل جنس ، فأخرجوا للناس حضارة من نوع واسع . فلم تقم حاجزا دون معرفة أفلاطون وأرسطو وجالينوس وإقليدس وغيرهم . وفى ظل مثل هذه الحركات العقلية الكبرى لا يقف الدين عائقا أمام المعرفة مادام العاملون عليه من طائفة العلماء الحقيقيين .

أما فى عصورنا الوسطى فقد قامت طائفة الكهان ومشايخ الطرق(١) . ونذر حينئذ أن تجد صاحب رسالة عليا ، بل إن فى الناس كثيرين ممن يجهلون الدين فى معناه ومبناه ، ويقصرون همتهم فى نطاقه على ما يعود عليهم من الاشتغال بالأمور الدينية من ثروة وجاه ونفوذ .

وقد آن لنا فى نهضتنا الحديثة أن نقضى على الكهانة قضاء تاما . فان الدين للجميع والله رب الكل . وآن لنا أن نخرج بالدين عن دنيا الطقوس والتمائم ، وأن نعلو به ونرجع به إلى أصله : إلى رساله علوية ذات أهداف اجتماعية بجوار هدفها الروحى . ومهما أثير حول الفكرة الدينية فى حد ذاتها من قيل وقال ، ومهما كثر دفاع أنصارها ، وتهجم موجات الإلحاد التى أخذت تدب فى الفكر وراء تحرره الحديث ، فان عمانوئيل كانت قد أدلى برأى يصح أن يستشهد به الناس جميعا فى فهم حافز الدين . قال إن الدين سياج الأخلاق .

والحكيم مؤمن بالدين قدر إيمانه بالمعرفة . وهو يجد أن التوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث . فان اجتهاد المجتهدين فى هذا السبيل

(١) توفيق الطويل : التصوف فى مصر فى إبان الحكم العثمانى .

لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعى المبنى على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة .

« وهنا يتساءل الناس دائما : ما الدين ؟ أهو شىء مفيد للبشر فى أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم ؟ فى الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين . فالدين باعتباره قانونا اجتماعيا ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، هو أمر متعلق بذات الإنسان ، متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر « الأخلاق » فى الأديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت أن تجد فى « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » . إنما قوة الدين وحقيقته فى العقيدة والإيمان « بالذات الأزلية » . هنا لاسبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنسانى ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الإحاطة ، والذات الأبدية لايمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود ، فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل . هاهنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التى هى كل بهرجهم الآدمى الأجوف ، فان كل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح رغما عنهم بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة . »[1]

---

(١) تحت شمس الفكر ص ١٥ — ١٦

والنبوة عنده ذات صفة إنسانية محضة . فالرسول من رسل الله إن هو إلا شخص يمتاز على سائر الأشخاص بجلد وخلق وإيمان . ومن هنا كان تفضيل الله له على سائر معاصريه وتخصيصه بالنبوة . والوحى وهذا هو الاتجاه الغالب على مسرحية «محمد» التى تظهر عبقرية رسول الإسلام فى إطار الدوافع الإنسانية والشخصية البشرية . ولعل من باب الصدف أن تنشر مسرحية « محمد » فى الوقت الذى ينشر فيه بحث الدكتور حسين هيكل عن « حياة محمد » فالبحثان يستوحيان الروح الحديثة فى دراسة نبى الإسلام فيظهرانه فى حدود الدوافع البشرية لا المعجزات الخارقة والخرافات التى أحاطت به على مر العصور حتى أنها استقرت فى أذهان العامة . ومما لامراء فيه أن بنى الإسلام وأن القرآن مافتئا يوجهان الأذهان إلى أن محمداً ليس سوى بشر يوحى إليه . ومن هنا كان «محمد» يستشير صحابته فيما جل ودق ولا ينفرد دونهم برأى أو قرار مادام أن القرآن لم يفرض فيه حكما خاصا .

وفى هذا يختلف الإسلام اختلافا جوهريا عن الدين المسيحى الذى لم لم يستقر أنصاره استقراراً نهائيا حول طبيعة صاحب رسالته . فالبعض يرى أن المسيح إنما هو بشر ، على أن هؤلاء لا يستطيعون أن يتصوروا فى المسيح كيانا بشريا خالصا . والبعض الآخر يرى فى المسيح طبيعتين : ناسوت ولاهوت ، فهو عندهم روح الله الذى نزل إلى الأرض فى صورة البشر ليطهر الأرض من الآلام والخطيئة ، وليحمل وزر الأدران الإنسانية (١) !

---

(١) اقرأ حياة السيد المسيح كما هى أقرب إلى الأفهام فى كتاب (المسيح عيسى بن مريم) لعبد الحميد جودة السحار

وعلى العموم لا يمكن لذى عقل أن يتصور فى الأنبياء خوارق وراء الطبيعة البشرية ، وإلا فماذا يمكن أن نقول فى المخترعات العلمية الحديثة ؟ أما ناحية القوة الكامنة فيهم ، فهى فى مثاليتهم وحبهم الخير للبشر ، وصبرهم ومثابرتهم لنشر مثلهم العليا ولو كره الناس جميعا .

والدين الإسلامى عند الحكيم أقرب الأديان إلى طبيعة البشر وإلى الأفهام ، لا عن تعصب أو منطق تبرير ، ولكن على أساس الاستقراء العلمى : « فهو دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة . كل شىء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر من حيث تركيبهم المادى والمعنوى . ذلك أن أسلوب محمد فى إدراك « الحق » كان أسلوبا مستقيما . فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما هو « السبب » الذى يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو « النظام » إذ لا يتصور أن تكون « الفوضى » من عناصر الخليقة . بل إن « الفوضى » إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاما ، لأنه لا وجود بلا نظام ، بل إن كلمة « الفوضى » لا محل لها إلا فى أدمغة البشر ، يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهى فلا يعرف غير النظام ، هذا النظام الذى فرض على الإنسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للإنسان والأشياء مخالفة لله ، وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة . فجاء

أسلوب الإسلام فى الإفصاح عن « الحق » واضحا جليا ، لا يأمر بالرهبنة ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله ، لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه .

« إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقا لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية .

« فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فان الإسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شىء . فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيدا ! ، فان مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء . » (١)

دائما توجد فى كل دين هذه الطائفة من الجامدين والمتنطعين والمحترفين التى هى مسئولة إلى حد كبير — من الناحية السلبية — عن موجة الإلحاد والكفر بالدين . إن العالم يتطور وهم لا يتطورون مما دعا المنفقين على

(١) تحت شمس الفكر ص ٢٨ — ٢٩

حريتهم الفكرية إلى الاشتطاط ومهاجمة الدين فى أشخاص كل هؤلاء.

ولكن يجب الحذر، فهؤلاء الناس ليسوا هم الدين، ولا قيمين على شئونه. فليس لهم الحق إطلاقا فى أن يتكلموا باسمه دون غيرهم. اتركوا الدين للناس وهو وحده كفيل — بقوته العارمة — أن يتغلب على طائفة المتشككين والضالين[٢]، فانه يمثل قيما خالدة لاتفنى وإن فنى الأشخاص. وسر المحنة الفكرية فى أوروبا اليوم أن الناس قد اطرحوا العالم الآخر الذى تصوره الأديان، ولم يعرفوا لهم غير عالم واحد: هو الأرض، ولم يعرفوا لهم إلا أسلوبا واحداً هو المنطق العقلى والتجريب العلمى. فأوروبا الآن قلقة وحائرة فى أزمتها الراهنة، ولاشىء من داخلها يستطيع إنقاذها. فان التكالب على هذا العالم الواحد: عالم الواقع والدنيا قد أزاغ الأبصار، وإن وسائلها المادية لاتهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية. وأين نجد الاطمئنان إن لم نجده فى المثالية الدينية؟ عبثا تحـــاول الإخلاد إلى قيم أخرى تجلب لك الاطمئنان. فسلم والق السلاح، فان لم تكسب شيئا فلن تخسر شيئا

ومع إيمان الحكيم بالدين عامة والإسلام خاصة، نجده واسع الأفق لايعدل شىء فى نظره الحرية الفكرية وإن كانت فى ميدان الدين. أثيرت فى مصر معركة حول رسالة الأستاذ محمد خلف الله عن « قصص القرآن »، وصحبها ضجيج وصخب حين بدا للبعض أن المؤلف إنما يقصد إلى (رمزية)

---

(٢) انظر الفصل التاسع عشر من « عصفور من الشرق » فهو يوضح تماما ما عقلية ملحد، أصبح كالريشة فى مهب الرياح. ثم حاول أن يعود إلى حظيرة الدين والروح عن إيمان وحماسة وعقيده.

قصص القرآن لا واقعيتها . وحينئذ تحركت طائفة الجامدين والمتنطعين والمحترفين ترمى صاحب الرسالة بتهم لو أثيرت فى العصور الوسطى الأوروبية لكان مصير صاحبها الحرق علنا فى ساحات المدينة . فى تلك الغمرة كتب الحكيم مناصراً (حرية الفكر) التى لايخشى على الدين منها إطلاقا . فدافع عن صاحب الرسالة دفاعاً شديداً.

فتوفيق الحكيم متدين ، ولكنه تدين المفكر واسع الأفق الذى لا ينظر إلى القضايا الجزئية إلا بربطها بقيم كلية . وهو متحمس للدين لاتحمس الكاهن ، ولكن تحمس العالم المؤمن الذى لاحد لإيمانه بدينه وقدرته على البقاء مهما اختلف فيه الناس. يكره التعصب أيا كان مصدره، حتى وإن كان فولتير — ذلك الفيلسوف المتحرر الذين تدين له فرنسا وأوربا بحركة الإصلاح الاجتماعى التى تلت الثورة الفرنسية — كتب فولتير مسرحية عن « محمد » سب فيها النبى العربى سبا قبيحا تملقاً للبابا. وعندما اطلع عليها الحكيم كان موقفه من صاحبها موقف الخجل أن يكون فولتير من أصحاب الفكر الحر .

هذه هى فكرة الحكيم عن الدين ، وهو فيها من المجددين الذين يمكن أن نقرنهم بطائفة جمال الدين الأفغانى والاستاذ الإمام ، ممن يتطورون بالفكرة الدينية وفقا للزمن، فيظهرونها بالمظهر الذى يتمشى مع روح العصر دون أن ينالوا من جوهرها أو من غايتها . يصيبون ماء الحياة على طقوس جامدة ، بقايا متعفنة ، وعقليات ضيقة — فتدب فيها الحركة التى تخدم الناس فى أعز مالديهم .

والأخلاق شق كبير من المثالية الدينية ، فهى مظهرها الاجتماعى . ومن الزاويتين الدينية والاجتماعية للأخلاق نجد الحكيم فى الطليعة المجددة التى تسعى جاهدة إلى تحطيم الأوهام والأصنام التى تحول دون اقتراب الناس من مثلهم الأعلى .

ونظرة واقعية إلى مجتمعنا تقنعنا بأننا فى أزمة أخلاقية . اختر ماشئت من دولابنا الاجتماعى تجد فيه مظاهر واضحة لهذه الأزمة والذى ينظر إلى باطن هذه المشكلة الأخلاقية ، يجد أنها موجة مما يغمر الناس حين تتكسر التقاليد القديمة دون أن يصحب هذا التكسر بناء جديد . هى اختلاف فى القيم بين الحاضر والماضى دون أن توجد القنطرة التى توصل بين الجيلين .

وجيلنا القديم الذى أوشك أن ينقرض كان جيلا متدينا ، تسير حياته فى يسر ، وعلى أنماط ثابتة شكلها الإطار الدينى الذى ورثناه عن الماضى . وكان هذا الجيل سعيداً لايحمل هم الغد ، بل يترك كل شىء كما ظنه مقدراً ومحفوظا فى اللوح منذ الأزل وما من مصيبة تنزل بأحدهم إلا وأرجعها إلى علة علوية . وبررها بمنطق دينى لايغلبه شىء وقد رتب الجيل القديم كل شئونه ، وحدد العلاقات بين الكبير والصغير ، وبين الرجل والمرأة ، وأصبح للمجتمع بذلك منزلة كبرى تفرض على الأفراد أنماطا خاصة لايبرحونها إلا ويتناولهم المجتمع بألسنة النقد .

أما الآن فقد كفرت الأجيال الجديدة بهذه القيم القديمة ، ورأت فى الكثير مما كانت تفرضه طغيانا لامبرر له . وتحرر الشباب من كل القيود ،

وأصبح يصدر فى أعماله عن أحكام فردية محضة . وهذا فى حد ذاته أمر طيب فى الحدود المعقولة ، فان الحرية كما رأينا هى المنمية للفردية . ولكنها سلاح ذو حدين . نؤمن بالحرية التى يصحبها التوجيه . أما الحرية التى أسأنا استعمالها والتى أخطأ الجيل القديم فهمها وحاول جاهدا أن يكبتها ، ففيها يكمن الخطر . وعلة انهيارنا الأخلاقى أن الحرية التى تسلمها الجيل الجديد كانت مطلقة لاتصاحبها القيم المقررة ، أو المثل الواجب اعتناقها . فان الجيل الجديد قد تسلم حريته دون أن تتكامل شخصيته .

وجاءت السياسة المرتجلة لتزيد الأمر ضغثا على إبالة . فقد أصبحت أشبه بملاهى الأطفال لابسياسة الرجال . أحزاب تقوم على الأشخاص لاعلى المبادىء ، فهزت كيان الشباب وعلمتهم أن يهتموا بأنفسهم دون أن يهتموا بمجتمعهم وتقدمه . ومادام طابع الاحزاب هو الطابع الشخصى ، فلا مانع من خروج عضو من حزب وانضمامه إلى آخر خاصة عندما تبشر غيوم السياسة المحلية بانقلاب جديد . ورأس مال أعضاء الأحزاب ونوابها هو مقدار «تضحية» هذا العضو أو ذاك — ومقياس التضحية هذه هو مبلغ مايدفعه للحزب أو عدد مرات الحبس فى معارك التهريج . لافى معارك المبادىء .

ولإفلاس الزعماء فى المبادىء نجدهم يصطنعون عبارات ديماجوجية ملؤها بريق الكلام المسجوع ، والخطب المزركشة المنمقة ، والمغالطات السوفسطائية . تلك هى مدارس السياسة الحديثة ، وقد خرج غرسها أشواكا طفيلية لافائدة فيها فى حد ذاتها ، بالإضافة إلى إعاقتها الطريق القويم . فان سعد زغلول — رائد هؤلاء الساسة — وهو الزعيم الذى هز جيلا بأكمله

بفصاحته وقوة عارضته ، كانت عنده من الوسائل ما يوجد فى أيدى الزعماء فى الدول الناشئة . كان فى إمكانه أن يرسى القواعد الثابتة للمصريين جميعا دون تفرقة بين (زغلوليين) وغيرهم . ولكنه كان (أزهريا) ضيق الأفق ، يحاول جاهدا أن يحتفظ بمركز الزعامة الذى خلعته عليه الظروف ، ولو عن طريق المهاترات [1] . ولم يلتفت إلى إرساء قواعد إصلاحية تقوم على المبادىء والدراسة بمقدار استهوائه للشباب بكلماته الرنانة التى لم تفد البلد شيئا . وهاهو ذا قد خلف لنا أوضاعاً سياسية قوامها الأحزاب الشخصية التى هى أشبه ما تكون (بالشلل) ، دون أن تشبه من قريب أو بعيد الأحزاب المنظمة ذات المبادىء فى البلاد الغربية . وليس من عجب فى ظل هذا الإطار أن يكون هدف هؤلاء الساسة والمستوزرين هو الحكم ، ولا شىء وراء الحكم . « نعم إن (الحكم) أصبح الآن مثل أرجوحة (الخيول الخشبية الدائرة) التى يركبها الأطفال فى مقابل مليمات ، ولو أعطى الطفل ألف مليم لأنفقها كلها فى هذه اللعبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبى المطلى بالذهب ، الملون بأزهى الألوان الخادعة . وإن دوره ينتهى ورأسه يميل من الدوار فلا يفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض ، فيظل واقفا بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره ، وفى قلبه الصغير حسرة ، وفى عينيه الزائغتين علامات الصبر النافد ، إلى أن تنتهى الدورة فيخفق قلبه أملا فى أن يعود إلى الركوب . وهكذا دواليك ! أما الفائدة من ذلك فلا شىء غير اللهو والسرور . فهو متى امتطى

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ —

صهوة الحصان الخشبى تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل وأنه قد وصل . ويلعب برأسه دوار (الأرجوحة) أو دوار السلطة الباطلة ، و (الفروسية الكاذبة) فيقنع بذلك ، ولا يفعل شيئا غير ازدراء الواقفين فى الانتظار ، وهو يمر بهم مر البرق متعاليا متصايحا صياح اللذة والظفر . » (١)

وهذه الفكرة التى أحيطت بالحكم والتى أحسن الحكيم التعبير عنها بأسلوبه الساخر ، قد أضاعت كل شىء . فالحكم غاية الغايات . وعدم وجود مبادىء يختلف إزاءها الناس ، هو الذى طبع سياستنا بطابع الخصومة الكلامية المقذعة . ونهش الأعراض والتمسك بالسفاسف ، والانحدار المنتظم دون التفكير فى مثالية من أى نوع . وامتد ذلك بدوره إلى الصحافة « فجعلت تغرى شخصيات الفكر والسياسة بعضهم ببعض للمباريات العلنية فى أحدث ألوان السباب والإقذاع والإسفاف ، حاسبة بذلك أنها تسر قراءها ، كما كان العوام يسرهم قديما تناحر الديوك وتناطح الخراف . حتى فسدت أذواق قرائنا ، وانحطت مشاعرنا . وسفلت نفوسنا . » (٢)

وأصبح مبدأ الناس فى الغالب هو الوصولية أيا كانت وسائلها . فتعاطوا السياسة يقبلون الأيادى ويتمسحون ، ويطبلون ويزمرون ، ويدفعون (الاتاوات) . ويظل نادى الحزب من أولئك راكدا فى المواسم العادية ، لا يؤمه إلا (المتعطلات) ولاعبو النرد ، يقطعون وقتهم فى (الدردشة)

---

(١) تحت شمس الفكر ص ١٢٠

(٢) انظر : تحت شمس الفكر

السياسية ، وتدبير المقالب ، وإخراج الإشاعات . حتى يأتى الوقت الذى يدعى فيه الحزب إلى الحكم. وحينئذ يمتلىء النادى . وضيق بمرتاديه وأعضائه.

والشعب — أو الجماهير فى هذه المهزلة — لايكترث لهذه اللعبة ، أو الرواية التى مجها . إن هى إلا أسماء تسمى دون أن تكون وراءها مدلولات متمايزة . والناخب يساق إلى صندوق الانتخابات، وهو لا يدرى شيئا من أمور السياسة العليا التى ترسم مصائر البلد . فهو لايحس إلا عصبيات تلهب ظهره بسياطها وتهديداتها حتى لايتوانى فى إعطاء صوته ، أو ثمنا يقبضه آجلا على شكل وعود براقة أو معجلا على شكل أوراق مالية لايحلم بها . هذا إلى تزوير الانتخابات الذى أصبح عندنا أمرا عاديا يتقرب به رجال الإدارة إلى الحزب الذى ينتظر أن يثب إلى كرسى الحكم وصولجانه .

ووراء ذلك كله تجد فئة المرتزقة الذين ينتظرون موسمهم و (ثمرة) جهادهم ! فالوصولية ذات أهداف معروفة : الثراء بأى ثمن . ويسير الوصوليون فى ركاب السلطان ، ويصطنعون لذلك أساليب الملق والرياء وإطراء الغرور لدى الحكام . ويكون قبض الثمن من مال الدولة لامن مال الأحزاب الذى يتضاعف هو الآخر فى مواسم (المحصول) ! لقد كثر السماسرة الكبار فى أسواق الذمم الخربة ؛ فأصبحوا مستغلى نفوذ ، وتجارا فى السوق السوداء ، وأعضاء فى الشركات الاحتكارية التى تتخذهم ستارا لامتصاص دماء الشعب المسكين كما أصبحت الأداة الحكومية متضخمة مرتبكة بما حشر فيها على مر الأعوام من جيوش الأنصار والمحاسيب ، ممن لايحسنون عملا ولا يتحملون تبعة .

وإذا شئت أن تجد وصفا حقيقيا لاذعا لهذه الأوضاع كلها ، فلتقلب (مسرح المجتمع) ، ولتقرأ (مفتاح النجاح) و (اللص) و (أعمال حرة) و (الرجل الذى صمد) ، ولتقرأ أيضا (شجرة الحكم) و (يوميات نائب فى الأرياف) لتخرج منها جميعا بصورة حية للسياسة وكيف تسرى سمومها فى النفس المصرية ، لتفسد أخلاقها ، ولتدفعها دفعا إلى تيار الانحلال .

وقد غطت السياسة فى مصر على كل شىء وأفسدت كل شىء : « السبب فى ذلك بسيط : أن حياتنا فوضى ، أو هى حياة أولية سديمية لم تتكون منها عوالم منظمة متألقة يعيش فيها الناس . فانك لا تستطيع مثلا أن تقول فى مصر عالم الأدب وعالم العلم وعالم الرياضة وعالم الفن وعالم السياسة . . . . الخ بالمعنى المفهوم لهذه العوالم فى أوربا . فان كل طائفة من هذه الطوائف عندنا لم تستطع حتى الآن أن تنظم نفسها تنظيما يؤهلها لحصر جهودها المنتجة فى منطقة معينة بالذات . وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التى فى يدها القوة واللقمة ، وهم رجال السياسة ، قد برز عالمهم كالشمس فطغى على الآخرين ومحا من الوجود تلك العوالم الأخرى النافعة التى كان ينبغى ألا تقل عنها إشراقا . . . . وإلى أن يكون لرجل العلم ورجل الأدب ورجل الفن فى مجتمعنا عين الاحـــترام والاهتمام الذى يقابل به رجل السياسة ؟ إلى أن تكون للمظاهرات الأدبية والعلمية عين الهزة والضجة التى تكون للمظاهرات السياسية ـــ إلى أن نترك هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين المحترفين يصيحون ويصخبون فى نواديهم . . . ! وننصرف نحن المفكرين إلى نوادينا ومجامعنا الفكرية . . . الخ إلى أن تتعدد نواحى النشاط فى البلد ، ويذهب هذا النوم والخمول الذى

شمل كل جانب إلا ذلك الجانب العقيم: السياسة — إلى أن يحدث كل هذا فلا أمل فى المجتمع المصرى . » (١)

وإذا أردنا أن ننقذ البلاد من داء الحزبية فلنصلح الساسة أنفسهم ، أو فلنصلح الجيل الجديد الذى سيخرج منه ساسة الغد . إذا أردنا أن ننقذ مصر الغد فى شبابها كان « علينا أن نصلح عيوبنا السياسة لأن ضررها قد امتد إلى أبنائنا ، وسمما زحف إلى صميم عملهم وكيانهم ومستقبلهم. ذلك أن الأوضاع الجديدة الديمقراطية كما يساء فهمها فى مصر قد صرفت شباب اليوم عن الجد والعمل . فان سريان داء الحزبية السياسية إلى كتلة الطلاب واستخدام الساسة للطلبة ذلك الاستخدام المعروف ، قد جعل الطلبة من جانبهم يستخدمون الساسة هم أيضا للتدخل فى مسائل الدرس والامتحان . وبذلك فهم الشباب اليوم أنهم بمجرد الشكوى والإلحاح والوساطة لتخفيف البرامج ولتسهيل الامتحانات يستطيعون بلوغ ما كان يبلغه أسلافهم بالكد والجد والعمل . ثم كان من أثر تدخل السياسة فى شئون الطلبة والمدرسة أن ضعف نفوذ المدرسة هذا الضعف الذى أعجزها عن هداية الطلاب . ثم كان من أثر تفشى المحسوبية — وهى إحدى نتائج مرض الحزبية — أن دب التراخى والتواكل فى المعلمين ، وغدا أكثرهم مثل بقية الموظفين وأكثرية الناس ، يتطلعون إلى المادة والترقى عن طرق الوساطة. وتأثر البيت بذلك وبما فهمه خطأ من مرامى كلمة الحرية والاستقلال ، فاستقل كل عضو فى الأسرة عن الباقين ، وتحرر فى تصرفاته واتجاهاته

(١) تحت شمس الفكر ص ٩٧ — ٩٨

وخرج عن طاعة رب البيت . فتفككت عرى الأسرة وحلت فيها الفوضى، وفقد الوالدان السيطرة على الأبناء، وأصبح الصغار هم الذين يقودون الكبار فى البيت وفى السياسة . ولما كان الشباب هو طور اللهو والعبث وعدم المسئولية ، فان تلاشى الحواجز التى تنظم هذا الطور تؤدى حتما إلى جموحه وتغلبه . وهذا ما حدث بالفعل من انطلاق الشباب إلى اللهو انطلاقا لا يحده شىء ولا يقفه أحد . »[١]

ومن أثر امتداد السياسة إلى دولابنا الاجتماعى كله ، أن انطبعت الأمة (بروح العصر) . فقد عم الملق والرياء ، وكثرت الفقاقيع ، وضاعت المثالية وجرف التيار كل شىء إلا من عصم ربك : فقد مضى ذلك الزمن الذى كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب من واجبه الإنسانى، والقاضى عن عدله المنزه، ورجل الفقه عن فتاواه المجردة، والاستاذ من بين تلاميذه ودرسه ، ورجل الدين من بين تابعيه وزهده . الآن نستطيع بترقية أو بعلاوة لا تعدو جنيهات أن نلعب بلب أكثر هؤلاء وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعى وأن نغريهم بمناصب لا صلة لها بعلمهم ، ولا بفضلهم ، وهذا ما يحدث كل يوم ، فقد ماتت المثل العليا . وهذا ما أقفر دور العلم والفكر والدين والزهد ودور العدل والفقه ، ودور الفن والأدب — من أربابها ، وزج بهم إلى التطاحن والتسابق فى ميادين المادة والوصول . . . . »[٢]

---

(١) شجرة الحكم ص ١٧ وما بعدها

(٢) تحت شمس الفكر ص ١٠٢

ولاشيء أوقع فى النفس من تشبيه الحكيم « للنفاق » فى مصر بقطنها ذى الشهرة العالمية : « سمعت أن «النفاق» له قيمة كبرى فى الأسواق العالمية وأن أجود أنواعه يوجد فى مصر، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن . . ولعل السبب فى تفوقه وتميزه بطول تيلته أنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع . . . . فمثلا من الجائز أن يعتنق الفرد رأيا مخالفا للجماعة فتنهض ضده جماعة فيقبع فى داره صامتا . . . . وهذا مايحدث فى كل بلد آخر . . . . . أما هنا فيحدث غير ذلك . فلقد أخبرونى أن أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة ، فاتهمهم الناس بالإلحاد ، فلم يكتفوا بالصمت ، بل قاموا فى اليوم التالى يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمائم الخضر . وآخرون عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر ، فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة ، بل راحوا يتزعمون حركات الحض على الورع . ونساء يرتكبن فى السر الفجور وينادين فى العلن بالفضيلة . وسياسيون قد خلق الله لكل منهم وجها واحداً ، فصنعوا هم لأنفسهم وجوها عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ . وأسر وعائلات توزع فيما بين أعضائها المبادىء والأحزاب . كما يوزع الله بين عباده القسم والأرزاق . ومرءوسون يداهنون الرؤساء على حساب الدولة ، ورؤساء يراؤون الشعب على حساب المصلحة . وسيدات يردن العبث واللهو فيقلن للناس إنه البر والخير ، وأهل دين يملئون الصحف ضجيجا حول الأخلاق ، ويدقون طبلا ضد الرذيلة ومايقصدون فى سريرتهم غير التظاهر والإعلان . . . . ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة . ويستثنون أنفسهم وذويهم . هذا بعض مايتعلق بالطرف الأول وهو الفرد . . . . . أننا

الطرف الثانى وهو المجتمع فله نفاقه أيضا . . . فقد بلغنى أنه مامن مجتمع فى غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز ! . . . . . وهذا المجتمع يشمئز من اللص والآثم الشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان مايبتسم له المجتمع أيضا ، ويستقبله استقبال الأمجاد الأبطال . بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المخجل لهذا المليونير والماضى المزرى لذلك السياسى فلا يمنعه ذلك من حملهما على الأعناق .

« هكذا يرائى المجتمع الفرد ، ويداهن الفرد المجتمع . . . . . ولا يدرى أحد أيهما مصدر « النفاق » . لذلك قيل إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أى الطرفين مصدر الآخر . . . . وكل الذى نعرفه أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة . . . . وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة » .(١)

. . . . . .

هكذا يعرض الحكيم لحياتنا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية . وهو فى روائعه الأدبية التى تتصل بهذه النواحى يصطنع أسلوب السخرية اللاذع الذى يناسب الموضوع ، ويكون أدعى إلى القبول فى النفس ، وأوقع من مجرد الفكرى العادى . لإثارته الحواس والمشاعر بجوار إثارته للعقل .

ويعود من بعد ذلك ليرسم الخطة التى تعالج ظواهر النقص المختلفة التى تظهر بين وقت وآخر فى دولابنا الاجتماعى . ولا يكون ذلك عنده إلا بالتمسك بالمثل العليا : وعلى ذلك « ينبغى أن يؤمن الناس بألا أحد أعظم ولا

(١) حمارى قال لى ص ١٢٦ — ١٢٨

أقوى من الرجل الذى لايشترى بمال ولا بجاه . نعم إن من ملك قلبا حرا ولسانا حرا ، ولم يكن له فى زينة الحياة مطمع ، فهو وحده الذى يستطيع أن يسود العالم . »[١] وهو يرى أن الدرس الأخلاقى قد يأتى من صاحب السلطان كما يأتى من الفرد المحكوم . فالمهم فى الأمر أن يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة النزيهه العظيمة فى أى طبقة وأى بيئة وأى زمان . » إن أقرب السبل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العلياهو وجود المثل بالفعل . هو ظهور رجل واحد ومثل حى نراه بأعيننا ونسمع صوته بأذاننا ونلمسه بأيدينا ونتبعه بأفئدتنا . ولكن . . . . هل كل مجتمع قدير على إخراج مثل هؤلاء الرجال أو أن أولئك لايظهرون إلا فى مجتمع يهيئهم للظهور ؟ »[٢]

ونحن نجيب عن سؤاله هذا بأن المجتمع المصرى قادر تماما على إخراج المصلحين الاجتماعيين . فان أمثال هؤلاء لايظهرون عادة فى البيئات المكتملة النمو ، بل هم يظهرون فى المجتمعات الناقصة التى تدفعهم دفعا إلى المجاهرة بآرائهم للقضاء على المفاسد الملمة . ومجتمعنا الراهن لايعدم المجاهرين بملء فيهم بالإصلاح التطورى . ولكن المناداة بالأصلاح ليست عنده كل شىء . بل هى فى رأية ضعيفة الأثر فى مجتمع انجرف أهله كلهم فى تيار الأنانية والمصالح الشخصية . إن الدواء الفعال عنده ليس فى ايجاد برامج الاصلاح . بل فى وجود الرجل الصالح . وهو يردد ذلك فى اكثر من موضع . مؤكداً ان المبادىء الصالحة لاتصنع دائماً الرجال الصالحين ، ولكن الرجال الصالحين يضعون المبادىء الصالحة بمجرد سلوكهم فى الحياة والمجتمع .

---

(١) تحت شمس الفكر ص ١٠٤
(٢) تحت شمس الفكر ص ١٠٦

وهو فى بحثه عن الرجال الصالحين يعود فيرى الطريقة لخلقهم هى فى تهيئة المجتمع الذى يكفل لهم الظهور .

والحل عنده موكل بتغيير عام يحدث فى محيط المجتمع المصرى من جميع نواحيه السياسية والخلقية والدينية . فلا المدرسة ولا البيت بمستطيعين الآن شيئا كبيرا فى إصلاح مافسد . «لأن الفساد جاء من عاصفة جائحة لمبادىء شوهت وأسيء فهمها ، هبت فجأة على هذا البلد فقلبته شر منقلب . فالأمر أجل وأخطر من أن يعالج بالعلاجات الموضعية ، إنما هى عاصفة أخرى جائحة من المبادىء الصحيحة السليمة ينبغى أن تهب فتقيم ماوقع وترم ما انهدم. ولكن المعضلة هى : كيف ومتى تأتى العاصفة المباركة؟ فى رأيى أنها لاتأتى بغير إعداد واستعداد كما جاءت العاصفة الأولى الهوجاء. فلقد دخلت تلك العاصفة خلسة من النافذة التى فتحها جهاد طويل مجيد وحركة وطنية مجيدة . وهنا يأتى دور البيت والمدرسة فى الإعداد والاستعداد. عليهما يقع عبء تفهيم الشباب أن هذه الحال التى هم عليها لايمكن أن تدوم وأن عليهم أن يستعدوا لإصلاح ما بأنفسهم . على البيت والمدرسة الإكثار من تذكير الشباب بالمثل العليا القويمة والمبادىء الخلقية السليمة وأن يعرضا عليه عيوبه وعيوب الجيل وأمراض العصر . وأن يقنعاه بأنه هو المنوط به يوما إصلاح كل هذا الفساد وإحداث الثورة المباركة التى تقيم الوطن على أقدام الصحة والقوة والنظام . » (١)

(١) شجرة الحكم ص ١٩ — ٢٠

رائد الحوار

لطالما أجهد نفسه فى بدء تكوينه باحثاً عن الأسلوب الذى ينبغى له اتخاذه. كان فى هذا الطور يجد عقبته فى عجزه عن إخراج ما فى نفسه كما تصوره أول مرة فان الفكرة كانت تنبت فى نفسه، وتنمو وتمتد، وتتخذ شكلا منتظما فى رأسه، بل إنه لينفق الأيام فى بناء الصور فى مخيلته، وجمع الملاحظات واستخلاص التجاريب واستصفاء التأملات، ولا يبقى إلا أن يمسك بالقلم ليضع على الورق كل هذه الحياة الزاخرة النابضة. فاذا « شىء آخر باهت بارد كالجثمان الهامد هو الذى يخرج ».

عمل واحد استطاع أن ينجو من هذه النهاية: عمل دفعته نفسه إلى كتابته دون أن يستجمع فى رأسه شيئا من تفاصيله أو يستحضر فى خاطره دقائقه وأجزاءه... « ومن الغريب أن الأشخاص تكونت وتلونت وكأنها تخلق وجودها بذاتها. » وسارت القصة [1] بأشخاصها وبه إلى حيث لا يدرى. إلى أن أخبرته الأشخاص أنفسها بالنهاية المحتومة التى لابد لها أن تنتهى إليها.

وكانت بداية نجاحه لما بعدها. إذ أن (أهل الكهف) التى قامت على الحوار ونجحت فى إرشاده إلى حقيقة فنه، قد دفعته إلى المضى فى هذا

---

(١) أهل الكهف. كتبت عام ١٩٢٨ وطبعت لأول مرة عام ١٩٣٣.

الطريق ، ففرض الحوار فرضا على أدبنا العربى ، وهو لون لم يكن معروفا فيه بالمعنى الذى حمله إياه ولا بالمقاصد التى استخدمه من أجلها .

على ان الواقع إنه كان قد مارس الحوار قبل نزوحه إلى أوربا ، فى شكل تمثيليات أخرجتها بعض المسارح . ومن أجلها انصرف عن المقالة السياسية (المحترمة) وقتئذ فى نظر أهل بلاده . ومن بعد رجوعه إلى مصر أدرك أن الوقت والجهد اللذين بذلهما فى تخطيط محاولاته لم ينفقا عبثا ، وآمن بأن الحوار أسلوبه الذى يتحرق بحثا عنه . وانتهى به الامر إلى إدخال الحوار (قالبا) أدبيا وبابا مرعيا فى الأدب العربى . فأن ما أراده من جعل الحوار ذا قيمة أدبية يقرأ لذاته على أنه أدب وفكر ، قد استقر فى اتجاهنا المعاصر استقرارا نهائيا .

ويرجع إيمانه بالحوار كاطار لإظهار صوره وأفكاره ، إلى أنه يحب بطبعه الفكرة المركزة والبناء السليم فى كل خلق . ولاشىء يرضى غريزته الفنية مثل التركيز فى البناء سواء كان هذا البناء لهيكل آدمى أو فنى . وقوة البناء لاتتمثل فنيا أبرز تمثيل الا فى فن العمارة وفى السمفونية الموسيقية وفى القصة التمثيلية . ومن هنا كان إيثاره للقصة التمثيلية ألزم وأقرب إلى دقة البناء من القصة المروية .

حواره إذن هو قالبه الفنى الذى يميزه عمن عداه من كتابنا الكبار . والحوار ليس عملا سهلا . بل هو عملية انتقاء وانتقاء واختيار ، ووضع اكثر الافكار والصور فى أقل السطور .

إنه مايزهد فى شىء زهده فى الفن السهل الذى لايحتاج إلى مؤونة وتجربة وغوص ودرس ومايبجل شيئا تبجيله للفن الذى يصمد كالصخرة فى طريق

الفنان ، فما يزال به يعالجه بالصبر الطويل والكد المضنى حتى يفجر منه الماء السلسبيل . فالكاتب الحقيقى فى نظره هو ذلك الذى يخلق عالما زاخرا بالاشخاص والصور التى تحيا وتسعى وتشعر وتفكر دون أن يحتاج فى إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده .

وقد تبين له بعد طول الجرى والجهد أن الذى عنده مايقوله للناس يخرج بكل بساطة مالديه من كنوز . ولا يحفل بمراسيم التقديم ، ولا يتكلف الوضع المتحذلق فى الإعطاء ، إلا ذلك الذى يعطى شيئا تافها . «ما الأسلوب إلا تلك الآلة الصناعية التى نتوسل بها للوصول إلى الحقيقة ولكن ما أروع الحقيقة لو تفجرت وحدها من أعماق القلب الصادق فى كلمات بسيطة ! لهذا كان الأسلوب المتكلف أحيانا كل أدب أولئك الذين لا يحملون فى جعبتهم ما ينفع الناس . . . فالبلاغة الحقيقية هى الفكرة النبيلة فى الثوب البسيط . هى التواضع فى الزى والتسامى فى الفكر . » (١)

من أجل هذا نجده فى كثير من مسرحياته الاجتماعية يميل إلى استعمال اللغة البسيطة المتداولة لتكون الصورة التى يحاول رسمها أقرب إلى الحقيقة ، دون أن يخشى منها على الأفكار التى يستهدفها حين يضع هذه الروايات . وهذا أيضا اتجاه جديد فى الأدب العربى . فقد اعتدنا أن يكون مقياس البلاغة لدى القدماء الصياغة اللفظية فى المحل الأول . ومن هنا كانت الصياغة اللفظية إلى عهود قريبة وربما إلى اليوم ايضاً فناً يطلب لذاته ، ولا يرمى إلى هدف أبعد من ذاته . أما الحكيم فيعترف أنه منذ

(١) زهرة العمر ص ٢٠٢ وبعدها

أمسك بالقلم ماحاول قط أن ينشىء لنفسه أسلوبا جميلا يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة ، مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين .

ماخطر له أن يمارس الفن للفن فى الأسلوب . ولكنه فى مواضع كثيرة أراد أن يتخذ من الأسلوب خادما لأهداف أخرى غير مجرد الإمتاع. هذه الأهداف كما ظهرت واضحة للناس كانت قومية شعبية وإصلاحية فى (عودة الروح) وفى (عصفور من الشرق) وفى (يوميات نائب فى الأرياف) وفى (مسرح المجتمع) . وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان كما لم تظهر بوضوح لكل الناس خصوصا فى مصر فى (أهل الكهف) و (شهرزاد) و (سليمان الحكيم) و (بجماليون) و (أوديب) ، أى فى مسرحياته الفلسفية .

ذلك أنه إلى جانب إيثاره للحوار فى مؤلفاته . نجده يصبغ المسرحية الشرقية بطلاء جديد من فلسفة جديدة وتفكير جديد . فالتمثيل حينئذ أو (التشخيص) كان بمعزل عن الأدب إذ الرواية التمثيلية . قبل أن يتناولها فن حواره كانت شيئا يمثل ولا يقرأ . وربما كان للأدب عذره حينئذ فى تجاهلها . فان التمثيلية لدينا كانت مما لايمكن قراءته لمجرد قيامها على الحوادث المثيرة والحركات والمفاجآت . فلم تعرف بعد الحوار القائم على دعائم الفكر والأدب والفلسفة ، وهو ما أدخله هو فيها.

وللحوار عند الحكيم اعتبار خاص. لأسباب خاصة :ذلك أن الحوار بما فيه من إيجاز وتركيز هو القالب الأدبى القريب إلى سليقته المحبة للنظام .

فالفن عنده نظام. والنظام عنده هو الاقتصاد أى البيان بلا زيادة ولا نقصان. والرأى عنده أن الحوار ملكة، يرجع إلى صفته الضرورية له. وهى التركيز والإيجاز والإشارة التى تفصح عن الطبائع، واللمحة التى توضح المواقف. وهذه الصفة لا تناسب كل الناس ولا تلاحق كل الأدباء.

وعظمة المسرحية لديه هى فى القوة الخفية السحرية التى ترغم النظارة على أن ينفذوا إلى أعمق الأسرار البشرية، ويحيطوا بأسمى المعانى وأجمل المشاعر، ويستمتعوا بأبهج الطرائف وأظرف المباهج من خلال كلمات تلقى لا أكثر ولا أقل. وهو يستلهم مسرحياته فى وقائعها إما من حوادث المجتمع التى كثيرا ما عرضت له، أو من الأساطير القديمة. ويحاول فى هذه الأخيرة أن يلبسها صياغة جديدة يضمنها مثاليته كشرقى، وكانسان عاش فى القرن العشرين، أى أنه يحاول فيها معالجة التيارات التى يراها توجه البشرية منذ الأزل (١).

فالإنسان عنده ليس مجرد (جسم) يتحرك فى محيط بيئته المادية مما درج بعض القصاصين عندنا على تسميته بالحياة الواقعية. ولكن الإنسان أيضا فوق ذلك، وأكثر من ذلك (عقل) يتحرك فى عوالم فكرية. وهو (روح) يسبح فى معان شعرية. وهو مبادىء فلسفية ودينية واجتماعية تصطرع وتتطور. فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هى التى تجعل من القصة أدبا رفيعا يقرأ فى كل زمان ومكان دون التفات إلى قومية

(١) أخذنا اتجاه الحكيم فى تفسيره للكيان البشرى من (فن الأدب)، مع قليل من التصرف.

أو شعوبية . ولعل الحكيم بابرازه الناحية الفلسفية فى مسرحياته قد عبر عن وجهة نظر الشرق العربى فى كثير من المسائل التى تعنى البشرية . وهو وإن يكن عالمى النظرة إلا أنه لم يتجرد من طابع قوميته وشرقيته فى اتجاه التفكير

ومما دعا الغربيين ولاشك إلى تذوق بعض مؤلفات الحكيم والتعقيب عليها، أنه قد تناول فيها قضية العصر ، وقضية الإنسانية الخالدة فى قيمها العليا وفقا لمبادئه ومعتقداته ، وهو فى نظرته إليها يقف على الجانب الآخر بالنسبة للفيلسوف الأوروبى المعاصر جان پول سارتر زعيم المذهب الوجودى .

فالمذهب الوجودى على إطلاقه يؤمن بحق الفرد أو حق الشخصية الإنسانية ، وينادى بمقاومة طغيان الجماعة وإنكار المصطلحات الشائعة التى تتحكم فى آراء الناس بغير تمحيص . ودعاة هذا المذهب جميعا يلقون القفاز فى وجه طغيان الجماعة ، ويقدسون ضمير الفرد فى مسائل الاعتقاد والتفكير ، سواء تمثل هذا الطغيان فى صورة السلطة الدينية أو السلطة الفكرية أو أية سلطة من السلطات تحاول أن تطبع الضمائر بطابع واحد لامحل فيه لحرية التصرف وتفاوت الآحاد فى الحس والوجدان . (١)

وجان پول سارتر — زعيم هذا المذهب فى فرنسا — ملحد منكر للالهية وجميع الأديان . ومن هنا لاشىء يقف فى طريق دعوته لتحرير الإنسان المعاصر من كل سلطة ، وإعلانه أن الإنسان حر بطبيعته وسليقته ،

---

(١) عباس العقاد : بين الكتب والناس ص ٩ — ١٠

وأنه لا يستطيع الخلاص من حريته دون أن يتخلص من وجوده . فالانسان — عنده — حر فى إرادته ومسئوليته أمام الله الذى لايملك معه حلا ولا عقدا لأنه هو نفسه إله الوجود. ولذلك يعطى سارتر الإنسان ماشاء من العقيدة والخلق والسلوك ، ثم لايعرف لهذا الاختيار حدا على الإطلاق ولو ذهب إلى أبعد الحدود ، لأن التحرج من قطع الصلة بين الفرد والجماعة يرجع إلى الفرد نفسه . فان شاء قطع الصلة بينه وبين من حوله ، وقبل أن يتعرض لجريرة عمله ، وإن شاء قنع بالمداراة وطلب الحرية فى الانطواء على ضميره ، وهو فى الحالتين صاحب الحق الأول والأخير فى حرية الاختيار .(١)

وليس هنا محل مناقشة هذا المذهب الممعن فى الفردية الذى يشبه من بعض نواحيه تعاليم السوفسطائيين وهو فى الواقع بمثابة ردفعل للمحاولات التى فرضت على الفرد للحد من حريته سواء على يد المذاهب الفاشية أم الشيوعية ، التى تضع المجتمع فى المحل الأول دون كبير وزن لقيمة الآحاد بالنسبة إلى المجموع .

وهذا الموقف من قضية العصر قد وقفه الحكيم وتأمله ، وعرض فيه نظرته باعتباره شرقيا مسلما . ولا يمكن فى إطار النظرة الإسلامية للإنسانية أن يكون الإنسان إله العالم ، أو أنه وحده فى الوجود أو أنه مطلق الحرية . إنما هو يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية التى تتجلى للإنسان أحيانا فى صور غير منظورة من عوائق وقيود ، عليه أن يكافح لاجتيازها

(١) نفس المرجع ص ١٠

والتغلب عليها . ولذلك تتضح فى مسرحيات الحكيم فكرة عجز الإنسان أمام مصيره . فمصير الإنسان مرتبط عنده دائما بجهاده أمام القوى غير المنظورة . فهو بشعوره الداخلى أنه ليس وحده فى الكون ، وأنه ليس حرا ، أدرك أنه سجين تلك القوة الخفية التى تسمى (الزمن) وأن مصيره مرتبط بالزمن ارتباطا وثيقا ، وأنه ليس حرا فى التخلص من زمنه ، وأنه ليس فى مقدوره أن يعيش طليقا فى كل جو وكل زمن . وهذا هو محور مسرحية (أهل الكهف) (١) .

بناها على سورة الكهف التى وردت فى القرآن . وهى تروى قصة أولئك الأفراد الذين هربوا بدينهم المسيحى الجديد من اضطهاد الامبراطور دقلديانوس ، ولجئوا إلى كهف ، ثم غابوا فى سبات عميق هم وكلبهم . والرواية مبنية على (بعث) أهل الكهف فى الدنيا ، وتتناول غربتهم الزمنية . عاشوا حقيقة من جديد ، ولكن فى غير عصرهم ، وإن يكونوا قد رجعوا إلى نفس الأرض التى كانوا يعيشون عليها من قبل . وتتجمع العقدة فى الرواية حول بعث المشاعر فى حب قديم . فان (ميشيلينا) قبل أن يأوى إلى الكهف كان يحب (پريسكا) ابنة دقلديانوس التى اعتنقت المسيحية سرا . وعندما (بعث) وجد سميتها وشبيهتها ابنة الملك المسيحى . وحاول — وهو الذى اعتبره الناس قديسا — أن يحيى حبه القديم . ولكن هيهات ! كان الحاجز يقف فى طريقه ممثلا فى قيود الزمن . ومالت إليه الأميرة فى آخر

(١) وهو كذلك واضح فى مسرحية (لو عرف الشباب) فى كتاب (مسرح المجتمع)

الأمر — بعد فوات الأوان — وكانت قبل ذلك تراه صورة مجسمة للماضى السحيق الذى يفصل بينهما . وظل (ميشيلينا) يتشبث بالحياة بالرغم من أن زملاءه قد تاقوا إلى كهفهم وسئموا الحياة التى لاطعم لها فى مجتمع ينكر (إنسانيتهم) .

ولا ينكر توفيق الحكيم أنه قد استلهم مصر القديمة فى تصويره (للبعث) كما جاء فى قصة (أهل الكهف) . وقد حمله على كتابتها أنه كان يرغب فى كتابة مأساة مصرية على أساس مصرى . وإذا كانت المأساة الاغريقية تتخذ من القدر أساسا لها ، فان أساس المأساة المصرية فى رأيه هو الزمن . وفى كلا الأساسين يتجاوب الصراع بين العاملين - أحدهما أو كلاهما - وبين الإنسان فلقد سيطر الموت والزمن والقلب والخلود على حياة مصر القديمة التى لم تكن تفكر إلا فى الخلوص إلى حياة أخرى ، وهذا هو منبع فلسفتها الدينية . دائما نجد فيها رهبة الموت وجلاله ، وذلك الأمل فى انتصار الروح على الفناء والزمان ، وذلك الانتصار انما هو البعث : بعث لا الى عالم غيبى آخر لاصلة له بهذه الأرض ، وإنما بعث إلى هذا العالم ، وهذه الأرض بزمانها ومكانها . هذا الايمان بالبعث المادى على هذه الأرض ذاتها ليس إلا السلاح القوى فى تلك المبارزة الهائلة بين الزمن والإنسان .

وكذلك يرتبط مصير الإنسان بالأرض تمام الارتباط . فالقوة الخفية الأخرى ، التى تسمى (المكان) — المكان المادى والمعنوى — لها قبضتها القوية على كيان الإنسان . وهذا هو محور مسرحية (شهر زاد) . فقد أراد الإنسان فى هذه القصة أن يتخلص من الأرض ليبلغ السماء ، فظل معلقا

بين السماء والأرض . وفى هذه المسرحية نجد فكرة تطور الإنسان فى دائرة مفرغة : كدائرة الأجرام العظمى والصغرى فى أفلاكها السماوية والذرية ؛ إنها صورة أخرى للمبارزة بين الإنسان والمكان .

سئم شهريار ليالى (حمام الدم) ، واللذة المادية التى غرق فيها دهرا ، فتاق إلى الروح . . . إلى عالم آخر — لا يوجد فى الأرض وعالمها المحدود — يتجرد فيه من قيود المكان والجسد ، ويحقق فيه حياة روحية خالصة . ولكن كيف يصل إليه بوسائله المحدودة التى تربطه بالعالم الأرضى ؟ إنه الصراع اللانهائى بين العنصرين الموجودين فينا : المادة والروح ، ركزه الحكيم لا فى المجتمع بأشخاصه وطوائفه ، بل فى النفس البشرية الكامنة فى فرد واحد . وهنا تتمثل الفكرة الفلسفية الثنائية كما قال بها هيجل حين حاول أن يدلل على أن لكل شىء نقيضا من جنسه كامنا فيه ، يتصارع ، ويخرج من ثناياه نتاج جديد له نقيضه .

والمادة والروح موجودتان فى النفس ، كما يوجد من ورائهما الشر والخير . وقد يتغلب كل من العاملين على الآخر ولكنه لا يقضى عليه نهائيا ، فالشرير كثيرا ما تلذعه وخزات الضمير فتكسر من شرته قبل أن يقوم بعمل الشر مرة أخرى . والنفس تتقلب بين العاملين تبعا لمحيطاتها ، ولا تفتأ تنتقل من أحدهما إلى الآخر انتقالا طفريا إبان أزماتها . ولا شىء أقوى وأوقع من انقلاب المادى إلى روحى ، والعكس . وأصعب الأمرين هو الانتقال من المادة إلى الروح . فان المادة تنسى الإنسان التأمل فيما عداها . لأنها استغراق وغرق . تطوى الانسان بكل تفكيره ومشاعره فى تيار مطالبها الملحة .

أما الروح المجـــردة ، أو إن شئت . الدقة الـــنزوع إلى الحياة الروحانية الخالصة ومصارعة النوازع البشرية . فهى الشقاء والضيق بقيود الزمان والمكان ، والتطلع إلى المثل الأعلى لحرية لا نبلغها مهما أوتينا من قوة . هى القلق والبرم والضيق . بقيودنا الأرضية أو الآدمية . . . ولا يدخل فى هذه الحالة أولئك النساك تجردوا للروح لا بدافع القلق والثورة على القيود كما فعل شهريار بل بدافع الأذعان والانسحاب والتهجد الدينى

وعبثا تحاول شهرزاد أن ترد زوجها إلى عالمه الأرضى باثارة كيانه المادى كرجل ، وقد خافت أن ينفلت من جاذبية الأرض إلى سماء لم يكتب لآدمى مثله أن يصل اليها . ولكنها لم تكن تستطيع أن تقف فى وجه دورة التطور المحتومة .

على أنه من الواضح أن (شهرزاد) فى المسرحية — كما قال عنها جورج ليكونت — « تبـــدو فى جوهرها الخالص ، عاطلة من لآلاء عقودها ، ونضار براقعها . . . وماذا يهم اسمها ومـــلامحها ؟ ليكن لها وجه المرأة ، أو وجه الحظ أو وجه العلم ، أو وجه المجد ، فلن تكون شيئا آخر غير القمة البراقة التى تتجه إليها وتتهالك عليها مطامع الإنسان ، والواحة التى تلهب ظمأه دائما ولا تطفئه أبداً ، والموضع الذى لا ظل للرحمة فيه ، حيث يتلاقى أمله الرغيب ووهمه المتبدد ، وكلاهما وفى للآخر ذلك الوفاء الفاجع المحزن ! » فقد غدت سراً عميقا يحار المحيطون بها فى فك طلاسمه . هى رمز للكون وأسراره . هى رمز للطبيعة فى مواجهتها للأنسان .

كذلك نجد مصير الإنسان عند توفيق الحكيم مهددا أشد تهديد بقوة أشد خطرا من الزمان والمكان ، هى تلك التى تتفجر من صميم قدرته كما تتفجر النواة من الذرة . وهذا هو محور مسرحية (سليمان الحكيم) .

وقد قصد من هذه القصة تصوير ذلك الصراع الدائر الآن على مسرح العالم الذى كاد ميزانه يميل بنا إلى الهاوية . (فالصياد) قد أطلق الجنى من قمقمه ، فسيطر الجنى على مصير من أطلقه ، وكاد يهلكه . وهكذا العقل البشرى فى الوقت الحاضر : سار مع قصوره الذاتى الى النهاية ، لاشىء يفقده ثقته فى إمكانياته . ووصلنا بامكانيات هذا العقل (الجنى) إلى مراحل جنونية من المكتشفات العلمية ، حتى أمكن إطلاق قوى الذرة التى قيل عنها فى الكتب القديمة انها لا تنقسم ولا تستحيل . ولكن أترانا أفلحنا فى توجيه هذه الطاقة الجديدة الى ما يفيد البشرية ؟ أترانا استأدينا ها فى التغلب على عامل الزمان والمكان ، وفى العمل على رفاهية السواد الفقير من سكان العالم ؟ للأسف لم يحدث ذلك بل الذى حدث بالفعل أننا قد استخدمنا الطاقة الجديدة فى صنع قنابل مهلكة قد تقضى على الحضارة الإنسانية وترجع بنا الى العصر الحجرى كما قال مرة العلامة اينشتاين صاحب نظرية النسبية . يقول الحكيم « أزمة الإنسانية الآن وفى كل زمان هى أنها تتقدم فى وسائل قدرتها أسرع مما تتقدم فى وسائل حكمتها ... إن المخالب فى الإنسان الأول قد تطورت الى أسلحة حجرية ... ثم إلى سيف ثم الى مدفع ، ثم الى قنبلة ذرية ... ولكن وسائل تحكمه فى غرائزه لم تتطور إلى حد يمكنها ، فى كل الأحيان ، من كبح جماح القدرة المطلقة ! ...

لذلك كان لابد دائما من وقوع كارثة ... أو حدوث إخفاق ... حتى يفطن العالم آخر الأمر إلى ضرورة الحكمة .. ولكن المشكلة هى أنه قلما يفطن ... وإن فطن فقلما يستطيع الوقوف فى الوقت المناسب ..إن منظر الإنسان فى هذا القرن العشرين ليدعو إلى العجب. . فالصورة الحقيقية له هى صورة مخلوق: له ذكاء العالم وضمير القرصان وغريزة الحيوان . لسنا نطمع ، طبعا ... وقد منحنا هذا الكيان الآدمى بخيره وشره . . فى أن نقتل (الجنى) الذى فينا .. بذكائه وعبقريته وطموحه وسلطته ... ولكنا نأمل أبدا فى أن نقيم من نفوسنا الخيرة سدا يقف فى وجه إغرائه كلما طغى وأراد أن يجمح بنا إلى الهلاك . » (١)

على أن شعور الحكيم بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة فى مصيره ليس مؤداه التشاؤم . كما أنه لا يرى فى النظريات الأوربية القائلة بحرية الإنسان أمام مصيره ما يدعو الى التفاؤل . فالانسان إلاله الحر مع ما ركب فيه من الغرائز قد طغى وانقلب محاربا لنفسه هادما لذاته . فى حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التى تواجه الإنسان وتؤثر فى إرادته وحديثه ، تدفع به فى نهاية الأمر إلى أن يحشد غرائز حربه وكفاحه لا ضد نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة وهذه القوى الخفية . فالشعور يعجز الإنسان أمام مصيره — عنده — حافز إلى الكفاح لا التخاذل . هكذا كافح أهل الكهف ضد الزمن ، وحاولت شهرزاد أن ترد الصواب إلى زوجها فتعيد إليه إيمانه ببشريته ، وجاهد سليمان الحكيم ضد إغراء القدرة التى

(١) تعقيب الطبعة الثانية لسليمان الحكيم .

كادت تخرس صوت الحكمة .» وهكذا كان الإنسان يجاهد دائما ضد العوائق الخفية التى شعر بتأثيرها فى حريته وإرادته ومصيره وهو جهادلا من نوع هدام كجهاد الإنسان المتأله ضد نفسه، بل جهاد بناء كجهاد المصريين القدماء، ضد الزمن وعوامل فنائه ، باقامة الهياكل الكبرى واختراع التحنيط والأصباغ. وكجهاد أهل الدين السماوى فى الشرق ضد قلق النفس وغرائز الإنسان بتثبيت العقائد ووضع الشرائع . ومهما يكن من عجز الإنسان وإخفاقه أمام مصيره، فان العبرة هى بجهاده المنتج الشريف .وذلك ما أرادته القدرة الإلهية للإنسان : فهى قد ألقت فى سبيله الأحجار ليجاهد فى تحطيمها ، والعوائق ليكافح فى إزالتها . وليس المهم للإنسان أن ينجح ، بل المهم أن يكدح .وليس الشرف للإنسان فى أن يقول إنى حر . بل فى أن يقول إنى سجين ، ولكنى أجاهد للخلاص »(١)

وفكرة الحكيم هذه مرحلة وسطى بين فكرة سارتر : حرية الإنسان وألوهيته ، وبين عنصر الميثولوجيا الاغريقية :عبودية الانسان وعجزه التام أمام مصيره المحفوظ منذ الأزل فى لوح (القدر) .

وما كان الإغريق القدماء يعرفون عالما آخر أو بعثا. فقد كانت آلهتهم وتعيش تمرح فوق جبل أولمب، وتتسم بطبائع وميول ونوازع لاتختلف كثيرا عن طبائع وميول ونوازع البشر . فهم يحبون ويكرهون وينتقمون ، وقد يقسون على الأفراد دون جريرة ، فيرسمون مصير بعضهم قبل أن يولدوا . وهذا واضح جلى فى قصة (أوديب) .

(١) فن الأدب ص ٢١٦ — ٢١٧

حكمت الآلهة على أوديب — قبل أن يولد — بأن يقتل أباه ويتزوج أمه . وشاعت النبوءة منذ ميلاده فى قصر أبيه ملك طيبة ، ورسمت مصيره حتى تحققت بالفعل ، وأوديب فى كل ذلك آلة مسيرة فى يد القدر يلعب بها كيف يشاء طبقا لارادة الآلهة ولنصوص النبوءة . وعلى هذا الأساس سارت مسرحية سوفوكليس ، ولم يستطع من حاول مجاراته أن يتهرب من سلطان النبوءة ، وهذا هو سر إخفاق من نازلوا المأساة الأولى ، فان التصرف فى النبوءة ، عقدة المسرحية ، يباعد بين الأصل والصورة .

وقد أبصر الحكيم فى مأساة (أوديب) صراعا ليس فقط بين الإنسان والقدر كما رأى الإغريق ومن نحانحوهم ، بل أبصر عين الصراع الخفى الذى أوضحه فى (أهل الكهف)[1] . فهو صراع لم يكن فقط بين الإنسان والزمن ، بل بين الواقع والحقيقة . فقد تحاب أوديب وأمه جوكاستا ، ثم أفسد عليهما بحقيقة أحدهما بالنسبة إلى الآخر ما كان بينهما ، فكان انتحار جوكاستا وسمل أوديب لعينيه .

ولم يستطع الحكيم فى منازلته لسوفوكليس أن يقبل جبروت «الآلهة» ولا النبوءة . فهو شرقى عربى مسلم يرفض فكرة الله المدبر لأذى الإنسان تدبيرا سابقا دون مقتض أو جريرة . رأى فى القصة تحديا من الإنسان للإله أو القوى الخفية . وأظهر هذا التحدى على نحو واضح ، ولكنه أبرز

---

(١) مثلت « اهل الكهف » عام ١٩٣٥ حيث افتتحت بها الفرقة القومية موسمها الأول عند تأسيسها . ومهما يكن من أمر استقبال جمهورنا المسرحى لها وقتئذ فان هذه المسرحية وأمثالها لم تزل سابقة لجيلها .

كذلك فى عين الوقت عواقب هذا التطاول لكى يوفق بين جوهر المأساة وبين عقيدته التى ماشعرت قط أن الإنسان وحده فى هذا الكون . فالموجب لكارثة أوديب عنده لايمكن أن يكون حقد الآلهة المنطوى على الكيد والشر . ولايمكن كذلك أن يكون قد أراد إسقاط المسألة لتعارضها مع عقيدته . ولكنه جعل الموجب للكارثة طبيعه أوديب ذاتها — طبيعته المحبة للبحث فى أصول الأشياء ، الممعنة فى الجرى خلف الحقيقة . تلك الحقيقة التى لاينبغى لبشر ان يكشفها ، وإلا رآى نهايته ووجد حتفه .

وعلى هذا الأساس نجد الحكيم يفسر مشكلة الثواب والعقاب . ليس عنده حتم خالص ، ولا إرادة خالصة — بل هناك توفيق فى هذه المشكلة المستعصية : فهناك قوانين أزلية تدبر الكون ككل ، وتوضع للخارجين على القانون بغض النظر عن ذواتهم أو أشخاصهم — كالمصيدة التى توضع للفأر الذى يعيث فسادا . . . فأى فأر عابث معرض للوقوع فى المصيدة . «فحتى فى عالم الغازات يوجد شىء من الحرية والانفلات خارج نطاق قوانينها الصارمة . ذلك أن وجود القانون يستلزم وجود الخارج على القانون . . . وهذا يستلزم أيضا نوعا من العقاب . . ليس فى اختلال النتائج وحدها ، بل فى إعادة الخلل إلى النظام ورد المتمرد إلى موضعه . » (١)

وقد علق ألويس دى مارينياك ، المتخصص السويسرى فى آداب اللغة اليونانية ، وفى تراجيديا أوديب بالذات ومؤلف البحث المستفيض عن الشعراء والناثرين الذين تناولوا مأساة (أوديب) على مر القرون —

(١) ص ٢٦٩ من تعقيبه فى آخر مسرحية (الملك أوديب)

علق على (أوديب) الحكيم بقوله: «أما توفيق الحكيم فهو فى أرابته وسخريته ويقظة رشده، يخلع عن الابطال الأقدمين تلك العظمة التى أضفتها عليهم الأساطير ليعيرهم عظمة غيرها — عظمة تصدر عن فضيلتهم البشرية دون سواها. فلم يلق (أوديب) الحكيم ذلك الاسفنكس [1] الذى تتحدث عنه الاسطورة. بل قنع المسافر البطل بأن صرع أسدا كان يجول فى سفح جبل ستيرون ويفتك بأهل البلاد... ولن يصبح أوديب عظيما الا بمسلكه ونوع موقفه أمام الكارثة... ولكن الخرافة أقوى من المؤلف الذى يستخدمها.. فلم يستطع أن يمنع مسألة القدر المحتوم من معاودة الظهور فى أكثر من موضع. فلقد بلغ من قوة هذه الخرافة أنها لا تدع لمن أراد استخدامها إلا النزر اليسير من حرية التصرف.» [2]

على أن الحكيم إذا كان لم يتغلب على عرامة الاسطورة، فانه قد استطاع أن يطبعها بطابعه الفكرى الخاص. كما أنه قد استطاع أيضا أن يدخل الأسطورة الإغريقية فى أساليب تفكيرنا الشرقى الذى لم يعرفها من قبل، ولم يخضعها كما أخضعها هو لفلسفته الشرقية الخاصة.

وأعاد الحكيم أيضا صياغة أسطورة بجماليون، وأراد فيها أن يعرض للصراع بين الإنسان وبين قواه الداخلية العليا أى ملكاته، كذلك بينه وبين

(١) مارد خرافى فتك بأهل (طيبة) اليونانية: وكان لديه لغز يتصدى له الناس. فإما أن يحل الشخص اللغز فينهار الإسفنكس أو يعجز الناس فيفتك هو بهم. ووهبت جوكاستا نفسها — بعد أن مات أبو أوديب — لمن يحل اللغز. وحل أوديب اللغز وتزوج أمه — دون أن يعرف أنها منجبته، فصدقت النبوءة!

(٢) الملك أوديب، ص ٢٦١

القوى غير المنظورة . الخارجة عنه والاقوى منه.

فبجماليـــون عبقرى الفن والإبداع ، المحروم من الحب ، يصنع بيديه من العاج امرأة يقع فى حبها ويناجيها ويدللها ، وبذلك يخلق لنفسه وبنفسه الحب الذى لم تهبه الآلهة إياه . وبعد أن يكتمل عمله الفنى يجده ناقص (الروح) فيطلبها من الآلهة ، فتهبها له فينوس ، إلهة الحب والجمال. وعندئذ يفطن إلى أن هذه الروح التى وهبت لتمثاله الخالد ،قد دمغته بطابع البشرية بما فيها من تغير وفناء .

لقد تهاوى عمله الفنى بمجرد دبيب الروح الآدمية فيه لقد كان قبل ذلك خلقا كاملا غير قابل للنقصان أما الآن فهو كيان يتحلل فى كل يوم . وتبين له فى الحال ان الروح الفنية اقوى وابقى من الروح الآدمية .

وسرعان مادب السأم فى نفس بجماليون ، وفتر حبه لجالاتيا ، وعاد يحن إلى فنـــه . وقد شعر بأنه قد فقد أثره الرائع ، وعاد ينعى على الآلهة أخذها تمثاله الباقى وإعطاءه زوجة فانية ! انتهى اللا محدود حين أصبح محدودا . انتهى الخالد ، وبات مهدداً — فى وضعه الجديد أن يتطرق إليه الفناء . وهنا طلب بجماليون من الآلهة أن ترد إليه عمله الفنى كما كان . .

وعندما تلبى الآلهـــة رغبة بجماليـــون مرة أخرى ، ترد اليه تمثاله القديم ، تعود دورة التطور مرة أخرى بالفنان ، فينظر إلى التمثال من خلال ذكريات الزوج . فيحن الى المرأة والحياة بدفئهما وفنائهما ، ويبرم بالفن بما فيه من جمود وخلود .

وهـــذه المسرحية — التى تكرر التطور فى حلقـــة مفرغة كما ظهر فى مسرحية (شهر زاد) — تعالج صراع الإنسان لامع الزمن أو المكان ، ولـكن مع نفسه وملكاته . فلا جمال الحياة يشبعه ، ولا كمال الفن يكفيه . . . ولن يفتر عن ملاحقة الجمال والكمال فى شتى الأوضاع والصـور ومختلف الأشكال والأحوال . لاينطفىء له ظمأ إلا بانطفاء الشعاع الأخير من نفسه القلقة الحائرة .

وهو فى إبان هذا القلق الداخلى ينظر إلى الـكون من وجهة نظره. يريد أن يملى عليه إرادته ، ويكافح القدر الذى لايعطيه طلبته ، حتى إذا ما أعطى مايشاء رجع يحن إلى الماضى ، ثم يعود يتطلع مرة أخرى إلى المستقبل. إنها دودة الشك والقلق : منها تصدر العبقرية ، ومنها تنبع التعاسة . . . هى صراع مع الملكات والغرائز ، أو القوى الداخلية التى هى النفس . ثم هى صراع مع المصائر والأقدار أو القوى الخارجية التى هى الآلهة . . . صراع طويل يصمد له الإنسان ويشقى . ولـكنه الصراع الذى بنى الحضارة ، وشيد الفن ، وألهب الفـكر .... فى طريق المثل الاعلى . .

مختارات من مأثوراته

فى الإنسانية والمثل العليا

● لا خير فى فكرة لم يتجرد لها صاحبها ، ولم يجعلها رداءه وكفنه ، بها يعيش وفيها يموت .

● النصر الحقيقى هو لذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية ولو خطوة ، ويسعدها ولو لحظة . . إن كلمة بنى أو ترنيمة شاعر أو تغريدة موسيقى ، لأنفع للبشر من صيحات الظفر وطبول النصر فى أكبر معركة حربية .

● بغير المثل الأعلى تحيون كالديدان فى الحمأة يأكل بعضكم بعضا .

● الروح لا العلم مصدر الخلود .

● المسيح ومحمد كل منهما كان يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ، ليبذر فيهما المثل الأعلى الإنسانى .... فالخلود هو لمن يعمل لخير الإنسانية كافة ، ولرفعة الجنس البشرى كله .

● إنى لأطيق أحدا يحقر الأفكار والكلمات . إن الكلمات هى التى شيدت العالم . . . . الكلمات الصادقة والأفكار العالية والمبادىء العظيمة هى وحدها التى قادت الإنسان فى كل أطوار وجوده وبنت الأمم والشعوب فى كل مراحل تاريخها . . مامن حركة وطنية أو قومية أو إنسانية قامت أول أمرها على شىء غير المبادىء والكلمات .

● الحرية هى الهواء الضروى لسعة الصـــدر والعقل . الحرية هى الدواء الحقيقى للأمة المريضة .

● عندما يظهر الذهب ببريقه ورنينه فاعلم أن المبادىء فى خطر . . . لأن هذا البريق سوف يذيب المبادىء بأشعته الساحرة . . وهذا الرنين سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع صوت المبادىء . . . هو عدو المبادىء لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ . مبدأ خطر طاغ متأله يهزأ بكل المبادىء المتجردة السامية . وعندما يتحكم يصبح هو وحده المقياس الفعلى لقيم الرجال .

● لولا شرف الجهاد لهدى الله الناس بغير أنبياء مجاهدين . ولجعل الانبياء ينجحون فى هداية الناس من أول كلمة بدون كفاح .

● ليس المهم للإنسان أن ينجح بل المهم أن يكدح

● الرق لم يذهب من الوجود . لقد اتخذ شكلا آخر يناسب هذا العصر . . لكل عصر رقه وعبيده .

● إن الأنسانية لاتتغير . انما الذى يتغير فيها هى الاثواب .

● ان الحضارات لاتختفى بل تنتقل .

● كل فضل الأنسان على غيره من المخلوقات انه يرتفع الى غايات عليا بأشياء معنوية لاتتصل مباشرة بطعامه وشرابه .

● إن نتاج الأذهان لايقل عن نتاج الألبان ثروة للأمة . ولكن الاقتصاد القومى فى الأمم المتأخرة لايدخل فى حسابه غير الثروة المادية . .

● الأنسان الحى حقا هو ذلك الكائن الذى تيقظت فيه كل حاسة وملكة ، مادية وروحية ، وتكونت وتهذبت حتى استطاعت أن تتخير له خير مافى الوجود من عناصر السعادة الروحية والمادية معاً .

● إن المعرفة البشرية لاتدخل إلينا من باب العقل وحده ، إنما تتسرب إلينا من كل مسام جلدنا وجسدنا وذهننا وروحنا .

● تحت شمس الفكر رأيت النور وعرفت الحب . . . ولكنني احترقت.

● لاتنس أنهم خلقوا من طين الأرض . . ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء .

● الفاصل بين الإنسان والحيوان هو الخيال . . . . الحلم المثالى هو العالم العلوى الذى لايدخله حيوان .

● إن عالم الواقع لايكفى وحده لحياة البشر . إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية كاملة .

● إن الغرب يستكشف الأرض . والشرق يستكشف السماء .

● إننا أهل الأرض لنشغل أحيانا بما نصادف من فوز أو متعة فنقع فى غشية من غرورنا ، ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها ، عندذاك تتركنا السماء فى حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة ، فلا نستيقظ ونرى ماصرنا إليه إلا يوم نحتاج إلى حرارة العزاء وعناية السماء .

● كلما همت روح الإنسان بالتحليق نحو الأعالى كبلتها أكاذيب الإنسان وأنزلها إلى التراب . . . كل شقاء الإنسانية أنها لانستطيع أن تترك شيئا عظيما ذا قداسة بغير أن تلبسه أحيانا ثيابا مبتذلة مضحكة من حمقها وزيفها وغرورها .

● إن أوربا اليوم تعانى أزمة شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة مرت بها . ذلك أنها تنبهت إلى أن مازعمته « روحاً » فى كيانها قد أنكشف لها

وظهرت من تحت ريش الطيور السماوية أنياب الخنازير البرية .

● إن كل وسائل العلم حتى الآن هى أعضاؤنا وعقولنا وحواسنا . وهى ليس لها من الأحاطة والدقة ما يقتنص غير القليل من ظواهر الطبيعة والكون ، مهما تعاونها الآلات والعدسات . ومادامت تلك هى كل ادواتنا فلن ندرك من أسرار الكون إلا اليسير .

● إننا لانستطيع أن نخرج من أنفسنا لنفهم ونرى شيئا غير أنفسنا .

● لقد همت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمى يرق وأن لنفسى أجنحة كأجنحة الفراش .

● إن تمسك الناس بالوهم الذى اعتادوه لأقوى من كل حقيقة .

● إن صاحب الحياة الهنيئة لايدونها بل يحياها .

● إن الحقيقة عملة لاتجوز فى مملكة الأحلام . .

● لقد هبط آدم الأرض فغمره نعيم وجحيم من نوع آخر ومادة أخرى لايعرفهما العالم العلوى .

● الحلم فنان حاذق يأتى أحيانا بالمعجزات فى رؤوس النائمين .

● إن الموت لايجل ويعظم حقا إلا فى نظر من يموت ؛ فى تلك اللحظة التى يشعر فيها المحتضر أنه مفارق هذه الدار التى عرفها وعرف أهلها إلى مكان مجهول ، فراقا لارجعة بعده

● من السهل أن نخرج من الحياة كلها ، وليس من السهل أن نخرج من الإطار الذى أرغمتنا الظروف على اتخاذ مكاننا فيه والتحرك فى حدوده .

● حب المعرفة هو شباب العقل، هو الشباب الأبدى . هو السمو الإنسانى الذى سجدت له الملائكة إلا إبليس .

● أزمة الإنسان اليوم هى حربه ضد نفسه . فهو ليس له قريع آخر غير نفسه لأنه لم يعد فى غروره يرى سوى حريته المطلقة . لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة التى تحرك وجوده وتلعب بمصيره، وتستوجب نضاله . وتتطلب تفكيره

● الإنسان هو الإنسان . ولكنه فى كل مرة يولد إنما يولد جديدا . . . لايكرر بالضبط إنسانا غيره . . ولا يشابه بالضبط شخصا سواه .

● لكل إنسان بين جنبيه بئر عميقة . . . ولقد رأيت من الناس من يلقى فى بئره دلوا من ذهب ، فلا يجد الدلو فى القرار غير نضوب وجفاف . . . ورأيت منهم من يلقى فى بئره دلوا من ذكاء ، فلا يجد الدلو فى القرار غير حصى مرصع وحجارة مرصوفة .

● لو استطاع إنسان أن يشمل بنظرته الأمس واليوم والغد ، وأن يتتبع حادثا واحدا أو رجلا بعينه فى مراحله عبر الزمن ، لرأى العجب .

● إن مانسميه الحظ ليس إلا وقوف نظرنا المحدود على وضع من الأوضاع فى وقت من الأوقات . وإن فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية .

● إن الإنسان الذى أعطى الحكمة ، ليس فى حقيقة الأمر إلا ذلك الذى أعطى العين التى ترى الأشياء فى جملتها لا فى جزء منها ، وفى تعاقبها لا فى وقوفها .

● من يحتل أرضك يحتل فكرك ، ومن يسلب بلدك يسلب روحك .

● شمس الغرب غاربة لامحالة .

● إن استطعت بالمال أن تشترى مظهر الحضارة ، فلن تستطيع أن تشترى روح الحضارة .

● روح الحضارة فى أمة يصبغ مشاعر واحساسات ، قبل أن يظهر وسائل وماديات

● الحلم لايمكن أن يحتفظ بصفاته الخيالية إلا وقتا قصيرا . . فاذا طال أمده انقلب إلى واقع .

● أيها الإنسان . . . أين تهرب ؟ إن ماتفر منه تحمله فى دمك ! حيثما ذهبت وتوالدت خرجت من صلبك حضارة مضيئة مدمرة كالشهب . . . هكذا خلقت ! . . . خلقك الله حقا من تراب الأرض الطيبة . . . ولكن مسك بعدئذ إبليس ، فصرت شهابا ، لايهدأ حتى يبرق ثم يحرق نفسه ، وهو يهوى فى أجواز الزمان . .

● القدر يعرف ما هو صانع بنا فى نهاية الأمر ، ولكنه يترك لنا حرية الكلام والحركة التى تقتضيها دوافعنا الداخلية

● المشهور شخص أضاع حرية الانغمار فى بحر الجماهير .

● إن الناس لايمكن أن يتصوروا إلا ما كان على صورتهم .

● الأجيال تتماسك فى الأمم القوية كما تتماسك حلقات السلسلة الفقرية فى الأجسام الصحيحة .

● فى الشباب يثمر الخيال والشعور والعاطفة . وفى الكهولة ينضج العقل والحكمة والتجاريب . فلكل فصل من فصول العمر فاكهته .

● المطلوب لتكوين شخصية النشء ليس حرية العمل بل حرية التفكير .

● الويل لأنسان الغد ! ماقيمة الأنسان وقد جردته الآلة من مقوماته؟ هى التى تفكر له وتبصر له وتسمع له وتقرأ له وتحسب له .. قل إذن إن الآلة ستصبح لها خصائص الأنسان ، وان الأنسان ستصبح له روح الآلة ! .

● واها لمن حكم عليه بالسير فى الظلام !

● إن الغضب علامة العجز .

● الطبيعة كلها ليست سوى سجان صامت يضيق علينا الخناق .

● أود أن أنسى هذا اللحم ذا الدود . وأنطلق .... أنطلق .. إلى حيث لاحدود .

● ما أنا إلا ماء . هل لى وجود حقيق خارج مايحتوى جسدى من زمان ومكان ! حتى الحركة والتغير والانتقال إن هى إلا تغيير اناء بعد إناء . ومتى كان فى تغيير الانا . تحرير للماء !

● كل شىء فى الكون يدور .. نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران ! .

● النهاية تتلوها البداية فى قانون الأبدية والدوران .

● إنى أضيق ذرعا بهذا المكان . بهذا الجثمان . الجثمان خلق المكان كما خلق الماء الإناء .

● ماأعجب تركيب الإنسان ! فينا القوة أحيانا إلى حد العظمة والتضحية .

وفينا الضعف أحيانا إلى حد الحقارة والأنانية .

● إن مجرد الحياة لاقيمة لها . إن الحياة المطلقة المجردة عن كل ماض وعن كل صلة وعن كل سبب لهى أقل من العدم ، بل ليس هناك عدم . ماالعدم إلا حياة مطلقة .

● إن أية حياة منحة . وأثمن منحة تعطى مخلوقا هى الحياة .

● الزمن يحلمنا . . . كى يمحونا بعد ذلك . . . إلا من استحق الذكر فيبقى الى الغد فى ذاكرته . . أى التاريخ .

● إنى أومن ببشرية الإنسان، وأرى عظمته فى أنه بشر ، أى كائن له ضعفه ونقصه وعجزه وأخطاؤه ، ولكنه يوحى إليه من أعلى .

● إن كثيرا من الانقلابات التاريخية والمحن البشرية يرجع فى أغلب الأحيان إلى إرادة رأس كبير أو تمرد بصيرة عمياء .

● فى كل ذرة أو خلية ناموسها . وإلى جانب هذا الناموس شراك يقع فيها الخارج عليه ، لترده إلى مكانه من النظام العام . . .

● إن الصدق مخيف للنفوس الضعيفة .

● هى القوة . . . تعمى بصائرنا أحيانا عن رؤية عجزنا الآدمى ، وتنسينا مامنحنا من حكمة . . . وتزين لنا المضى فى كفاح لاخير فيه . . . . فنسير بغرورنا تحت نظرات الرب الساخرة .

● آه . . لو كان فى يدى التجرد من طبيعتى !

● لايطفىء مصباح العقل غير عواصف النفس .

● صوت الحق ..لايسمع أحيانا بالأذن ولا بالرأس ...ولكن بالقلب!

● ماأتعس هذا الإنسان الذى جعل ينقب عن حقيقته فى الأعماق ، فما انبثق له غير نبع شقائه .

● إن الإنسان هو الإنسان . . . . . لابد له من أن يعمل ويريد ويسير بما تدفعه إليه ملكاته وخيلاؤه . دون أن تتبين نبصيرته القاصرة ، إرادته من إرادة الله . .

● الإنسان يضع مبادئه فى نطاق زمنه المحدود . ، ولكن الطبيعة تضع مبادئها فى نطاق زمنها غير المحدود . وهنا سر الخلاف بين الطبيعة والإنسان .

● مامن رأى واحد يمكن أن يسود هذه الأرض .

● كل منا يخدع نفسه . . . . أو نفسه هى التى تخدعه . . . . لأنه مامن إنسان هبط فى قاع نفسه ليرى مافيها . . . النفس الأنسانية ! هذا البحر ذو الوجه الصافى الذى تختلط فى جوفه الرمال بالأعشاب والصخور بالأسماك واللآلئ بالعقارب .

● إن دماء البعض علاج للبعض .

● هناك أشياء لايستطيع الإنسان أن يقدم عنها جوابا مقنعا . لأن طبيعتها تأبى التعليل المعقول . من ذلك مسائل العواطف والغرائز .

● ما أكثر الذين تسقط على رؤوسهم السعادة وهم نائمون ، فاذا استيقظوا هربت . . .

● يكفى دائما أن يوجد مجنون واحد بأخلاص ليستطيع أن يجن الآخرين بسهولة .

● كل إنسان يؤمن بما يرضى أنانيته ... كل شيء صالح ، وكل شيء مصلح ، وكل شيء فيه صلاح وإصلاح مادام فى مصلحتنا .

● هنالك طراز من الجياع يقضون حياتهم كلها بين الموائد ، ولا يملؤون أبدا مايشعرون به دائما من فراغ .

● ياللشباب الذى لا يبصر إلا بالعاطفة . . . وياللعاطفة التى لا تبصر أبعد من حاضرها .

● إن إثبات العقل لمن أشق الامور . . إذ كلما أمعنت فى إثبات عقلك ، ابتسم الناس رحمة بجنونك .

فى الفن والأدب

● الفن هو المؤدب الأول فى طفولة الأنسانية .

● كثيرا مايخطر بنفسى دون أن أدرك السبب هذا الخاطر الخرافى : وهو أنه لو فرض وجود عالم آخر أرقى وراء هذه الدنيا المنظورة ، فأن الخيط العنكبوتى الدقيق الذى يمكن ان يصلنا بهذ العالم النورانى هو : الموسيقى .

● بيتهوفن يتكلم ولكنه لا يتكلم بلغة الناس . إنه يقيم من الأصوات عالما لاتدخله ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهذبة .

● إن السعادة التى تلزم للفنانين ، ليقوموا بالأعمال الكبار ينبغى أن تكون بمقدار .... مقدار صغير ثمين مثل الراديوم . فاذا انغمروا فى حوض من هذه المادة السحرية ، فانها تنقلب فى أنظارهم ماء قراحا لا فعل له ولا أثر .

● إنى لا أقدس شيئا ولا أحترم أحدا ولا أنظر بعين الجد إلا الى أمر واحد : الفكر لأنه هو النور اللامع فى قمة هرم ذى أركان أربعة : الجمال والخير والحق والحرية . هذا الهرم هو وحده الشىء الثابت فى وجودى .

● الأدب ويداه .... يمناه الخلق الذى ينتج ويبتكر . ويسراه النقد الذى ينظم ويفسر .

● الخلق ليس معناه أن تخرج من العدم وجودا . إنما الخلق فى الأدب وفى الفن — وربما فى كل شىء — هو أن ننفخ روحا جديداً فى مادة موجودة.

● الفن هو الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير .

● إن الفنان أو الأديب يظل يبحث عن أسلوبه إلى أن يجده ، فيصبح بعد ذلك سجينه إلى الأبد .

● لا يستطيع الفنان أن يعيش طويلا إلا فيما خلقه هو بنفسه من داخل نفسه .

● الدين والأدب كلاهما يضىء من مشكاة واحدة . . . فى الدين والفن السماء هى المنبع .

● لو علم رجل الأدب خطر مهمته ، لفكر دهرا قبل أن يخط سطرا .

● ما أعجب العلم إذا تراءى لعين الأديب .

● إذا أبصرت شعاعا فاعلم أن وراءه كوكبا . . . ، إذا رأيت أدبا فاعلم أن وراءه حضارة . . . وما من خطر يهدد الشعاع إلا انفجار الكوكب .

● الثواب فى الفن كما فى الدين على قدر المشقة .

● فاكهة الذهن والقلب تبقى دائما نضرة . . . مادامت شجرة الحياة الإنسانية باقية باسقة .

● الفن أداة من أدوات خلق الذاتية .

● الأديب الحق هو الذى يجعلك تدرك عمقا جديدا كلما أعدت مطالعته .

● رسالة الأدب كغيرها من الرسالات الكبرى التى تبغى السمو بالبشرية ، لا تبلغ الأسماع إلا بعد جهد وصراع .

● الشعر ليس تصويرا مباشرا للحياة . . . بل هو انعكاس الحياة على نفس الشاعر .

● الحقيقة الفنية . والحقيقة الدينية ، تستطيعان الحياة على الرغم من ظهور الحقيقة العلمية .

● الشعر فن إيجاز وإيحاء .

● الأدب هو ذلك الشيء الذى يتصل اتصالا مباشرا بالجوهر الثابت فى كيان الإنسان .

● خلق الفنان ليخلق . ومهما تكن الأسباب التى ينتحلها أو تنتحل له تبريراً لعمله ، فان السبب الأكبر هو أن قبساً حل فيه من أشعة الخالق الأعظم .

● العمل الفنى هو وحده الذى يحلق فوق الأجيال حرا سليما بعيدا عن أيدى العابثين وأفواه الناهشين .

● إن المجتمع يخطىء دائما فهم الفنان كلما أراد أن يطبق عليه قانونا ثابتا .

● إن الممتازين من الرجال لهم دائما هذه الصفة : أنهم يخلقون وبين ضلوعهم قلوب لاتشيخ .

● مهمة الأدب . . . هى أن يعين الناس على تفهم حكمة الخلق وروح الوجود . . . وإفهام البشر أن السعادة عمل وكفاح وتقدم وتطور .

● إن الفنان لا يصبر طويلا على الإنتاج لنفسه . . . . إنه زهرة تعيش بأشعة من نظرات الناس .

● إن محاكاة القديم فى الفن محاكاة كاملة عمل يكاد يكون مستحيلا . . . كما لو كنا نريد بعنب جديد أن نصنع للتو خمرة معتقة . . . .

● إن كثيرا من الكلمات الجوفاء تندس أحيانا كالغوغاء فى مواكب المعانى!

● ربما كان الجزاء الحقيقى للمفكر هو لذة التفكير ذاتها ، لذة الكشف عن تلك الأسرار التى تزخر بها نفسه ونفس الأنسانية .

● كل مواجهة للجماهير ، حتى فى أنبل أوضاعها ، تحتاج إلى نوع من البراعة يتنزه عنه المفكر الرفيع .

● يحسن القدر أحيانا الى شاعر العاطفة بالموت فى شرخ الشباب ، كما يحسن الى الزهرة بالقطف قبل أن تذبل على الشجر .

● عمل الاديب أو المفكر هو خلق وتكوين أولئك الذين سيكونون قادة للجماهير .

● الفنان ليس مصلحاً . ولكنه صانع المصلح .

● الممتاز فى رياضة البدن لايمثل إلا نفسه وجسمه . أما الممتاز فى العلم او الأدب او الفن فهو يمثل خلاصة التاريخ الثقافى لبلده الذى قد تمتد جذوره الى مئات السنين . لهذا كان من الصعب على أمة أن تدرب وتظهر عالما أو فنانا بالسرعة التى تدرب بها وتظهر اللاعب الرياضى .

● الفنان الحق يخلق بدافع واحد هو تحقيق ذاته ، اى متابعة التطورات والتغيرات التى تحدثها ملكاته .

● الخلود هو نتيجة لاغاية عند الطبيعة والفنان .

● ان المعرفة الأنسانية من فن وأدب وعلم لتخلد نفسها أحيانا على قمة غرور الأنسان .

● الطابع الخاص فى الفن والحضارة شىء لا يتم بالأرادة ، بل هى ثمرة لابد لها من النضج الطبيعى .

● الفكر أقوى من المفكرين . ولهذا يخلد ويخلدهم ، على الرغم مما قد يشوبهم من ضعف الشخصية والأخلاق

● إن الاستقلال فى الفكر لا يبدأ إلا عندما تعرف وتعترف أن تفكيرك كان بذرة فى ثمرة الغير .

● فرق بين من يجعل فنه كالعروس يطلب لها المهر الغالى ، وبين من يجعل فنه كالعاهر تأتى له بالمال من أى طريق .

● الكتاب كالمرآة . هى تعكس صورة الوجه وهو يعكس صورة الفكر .

● المهن الراقية بغير رقى التكوين تهبط فى الحال إلى مستوى المهن اليدوية .

● ان غيطان النفوس تحتاج الى وقت طويل حتى تصل إلى اغوارها مياه الافكار وتهىء أديمها للنبت والأثمار .

● القائلون بأمكان رقى أمة بغير أدب وفن يقدمون للعالم ، لو صح زعمهم ، أعجب معجزة : وهى ان فى إمكان الأنسان أن يرقى بغير شعور وتفكير .

● المسئولون عن تأخر الشرق هم القائلون إن الأدب والفن من المسائل الكمالية ، فهم يطلبون الى الشرق أن يعمل ، وفاتهم ان الأنسان يجب أن يشعر أولا ، فيفكر ، ثم يعمل .

فى الدين والأخلاق

● إن مخالفة النظام الطبيعى للإنسان والأشياء مخالفة لله . وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه .

● ما يأمر به الله هو أن تعيش الأحياء طبقا لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية أو مناعة اكتسابية .

● ما الرسول فى الحقيقة غير الرسالة . . . والرسالة لا تموت .

● إن روح المسيحية هى المحبة والمثل الأعلى ، وروح الإسلام الإيمان والنظام .

● أول من يتبع الأديان هم العبيد والأرقاء والفقراء والضعفاء . ذلك أن طبقة الراضين الموسرين الأقوياء ليست فى حاجة إلى أن تتبع أحدا .

● إن المعجزة الحقيقية التى جاء بها أنبياء الشرق هى أنهم قدموا للناس عالما آخر عامراً بسكان من ملائكة ذوات أجنحة جميلة بيضاء . زاخراً بجنات فيها أنهار من التبر وأشجار من الزمرد ، راعداً بنيران تتأجج بلهب زرقاء كألسنة الأبالسة الهائمة كالخفافيش . . . . فى هذا العالم استطاعت البشرية أن تعيش حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع .

● السماء. الجنة. الجحيم. جرد عالمنا الأرضى من هذه الكلمات الثلاث... تنهار فى الحال أروع آثارنا الفنية.

● كل ما استطعنا أن نخلق من جمال إنما صنع تحت نور شعاع من أشعة السماء

● ما أقوى الإنسان الذى يعتقد حقاً أن له صديقا ونصيرا من أهل السماء.

● إن الإخلاص للدين والفن يستوجب التجرد.

● ما أسعد أولئك المؤمنين الذين يعتقدون ان الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة! ما اسعد اولئك الذين يرون الحياة الإنسانية جديرة أن تشغل الكون دائما هكذا طول الخلود

● عرفنا الله قبل أن نعرف البشر، وعرفنا الصفاء قبل ان نعرف الشر.

● لايخشى على الحكمة من شىء غير القدرة.

● ربما كانت الحكمة الحقيقية هى فى أن يعرف الأنسان كيف يحكم قدرته.

● كلما أسرفنا فى الانخداع بملكاتنا جعلتنا السماء موضعا للسخرية.

● اليوم الذى يمتلىء فيه الحكيم شعوراً بحكمته هو أقرب الأيام إلى ساعة انكشاف الرداء عن حمقه المضحك.

● يجب أن تكون فينا زهرة لم ترو، وجوع لم يشبع، ورغبة لم تنل، وصيحة لم تسمع، لنكون جديرين بفهم القلب الأنسانى.

● لاشك أن المسئول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم بتكالبهم على مملكة الأرض.

● إن أعظم معجزة فى الكون للخالق الأعظم جل شأنه هى « شخصية الإنسان » ... ملايين الملايين من البشر تتوالد وتتعاقب ، فلا تطابق شخصية منها شخصية أخرى تمام الانطباق ، فى الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع ... كل شخص يظهر فى الأرض جديد ، جدة تنبثق معه وتختفى معه ، إلى أبد الآبدين .

● كل معجزات الأرض قليل إلى جانب المعجزة العظمى وهى : الديانة التى يفجرها الله من نوره ، فيتبعها أفواج البشر مبهورين .. شاعرين أنها سكبت فى شرايينهم ، ومزجت بدمائهم إلى يوم الدين .

● ما من شىء يرينا دائما قدرة الله إلا عجزنا البشرى .

● غوغاء الفكر وكفرة الدين ... أولئك هم الذين يتعبون الأنبياء والفنانين .

● إن إرادة الله لها من المرامى مالا يتسع له ذهن إنسان ... فلن يكون إذن لمخلوق سلطان كامل على الغيب ، ولا قدرة كاملة على التنبؤ .

● السماء لا تهمس بكلامها لكل الآذان .. إنها أحفظ لسرها مما نظن ... ولغتها لا يفهمها كل إنسان .. لغتنا نحن البشر هى القول ، أما لغة الله فهى الفعل .

● تتفتح بصائرنا أحيانا من خلال الأخطاء ، كما تتفتح الأزهار النابتة فى الأوحال .

● لو أنك أردت أن تدنو من الله فأشعلت له فى نفسك مسرجة ، لأضاءت لك فى أحلك لياليك ... ولكنك آثرت أن توقد فى عقلك مصابيح ... انطفأت كلها عند عصفة من عصف الريح .

● إن الغاية النبيلة ليست من الضعة حتى تقبل أن يوصل إليها بطريق غير نبيل . إن الطريق إلى الشرف هو الشرف نفسه . والخير هو ذاته الطريقة والغاية . . لأنه شعاع من أشعة الله . . والله تعالى غاية لابد أن يكون طريقها نورا وخيرا .

● الإيمان لا يعرف الزمن . انه انبثاق من أعماق القلب فى لحظة فيكشف ظلمات الآزال والآباد .

● إن الخليقة الإلهية لا يمكن أن يكون فيها حشو أو لغو . هى هندسة دقيقة كاملة لا فضول فيها .

● إذا كنت أرتدى العفة طمعا فى تصفيق الناس فأنا دجال ... وإذا كنت أطرحها عند جحود الناس فأنا مزعزع العقيدة .

● ليس من السهل أن نعرف حقيقة الأشياء والأشخاص . . أهى فى تلك الضآلة التى نراها عليها من العلو ؟ أم فى تلك الضخامة التى نراها عليها من السفل !.

● انى لا أفرق بين القدر والنظام ، لأن تدبير الله هو تنظيمه ، وما نسميه قدره هو فى الحقيقة قانونه .

● إن اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة ، وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جماعة يستمدون هيبة وقوة وجلالا من مجرد قيم معنوية عارية عن المال والجاه ، لهو اليوم الذى يمكن فيه اقناع الناس بسلطان الروح

● لا شىء يقتل البائع الطامع غير المشترى القانع .

● الأنسان هو المخلوق الوحيد بين جميع الكائنات الذى نيط به ربط الأرض بالسماء .

● مامن شخص يستطيع أن يقتل الله فى صدره ، دون أن يقتل الأنسان فيه .

● إن خطوط العقول والقلوب مختلفة فى الناس اختلاف الخطوط فى بصمات الأصابع .

● هناك حياة تشبه الرسم الكاريكاتورى فيها من عدم التناسق مايكشف لنا غرابتها وعجائب القدر ، كما أن هناك حياة متناسقة مرتبة لا تثير عجبا ولا تخفى معنى .

● من الناس من يعيشون حاضرهم فى الأحلام فاذا جاء الغد صاروا حقائق ، ومن الناس من يعيشون حاضرهم فى الحقائق فاذا جاء الغد صاروا أشباحاً .

فى السياسة

● إن الحكم المثالى ليس فى المبادىء المثالية ، بل فى الأشخاص المثاليين.

● النظام البرلمانى فى مصر هو الاداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين .

● ما أكثر أولئك الأبطال الذين يبدأون بالعذاب والتضحية والتشريد ، وينتهون إلى اللذائذ والآرائك والعيش الرغيد . وما أندر أولئك الأبطال الذين يعيشون بفكرتهم العليا مشردين ويموتون بها محشورين فى زمره المساكين .

● القوة هى رداء الحق ، واذا أراد الحق أن يزدرى فليظهر عارياً بغير رداء .

● إن كل مشروع نافع فى الشرق لا يفسده غير التنافس على الرياسة .

● شجرة الحكم . . . . مامن فاكهة ألذ منها . من ذاقها مرة فلن ينساها أبد الدهر .

● قاتل الله البراعة السياسية . إنها ككل براعة تخلط الحق بالباطل ، والماس بالزجاج . . .

● الحكم هو الذى يمنح القوة للمبادىء . . خصوصا فى الشرق . . إن المبادىء فى بلادنا بغير حكم كالقفاز بغير أصابع . .

● كل أغلبية مطلقة تؤدى إلى الانزلاق نحو الطغيان . . . حتى الديمقراطية تحمل ضدها بين ثناياها وسمّها فى طياتها .

● ما السياسة إلا براعة تفسير المقاصد ومهارة فهم المرامى تبعا لمقتضى الحال .

● إن الشعب لا يريحه أحياناً أن تكون له إرادة . . . وهو يوم يراها فى يده ، يسرع فيعطيها لرجل أو لحزب ، كأنما هو يضيق بحملها ، ويود التخلص منها وطرح عبئها .

● الشعب الساذج يطعم بالأوهام البراقة لا بالحقائق الواقعة . . .

● ليس فى مقدور شعب أن يتحرر سريعا من سحر صورة ألفها . . .

● ما اضعف المبادىء أمام الاشخاص . إن أكبر خطر على المبادىء هم الاشخاص . والمصلحة الشخصية هى دائما الصخرة التى تتحطم عليها أقوى المبادىء .

● إن صاحب السلطة بسهولة يصدق الملق . . . وبسرعة ينسى النفاق .

● رجال الأعمال هم أولئك الذين يأخذون المال من الأعمال ، ويتركون للآخرين الاعمال بغير المال .

● المال هو أرخص وسيلة لشراء قلوب الناس ، وألسنتهم وحناجرهم وعقولهم ، وهذه القلوب والألسنة والحناجر والعقول هى رصيد كل من يطمع فى السلطان والنفوذ .

● الكلب على مروءته محتقر لأنه قبل أن يضع اصدقاؤه فى عنقه قيداً ، وان كان من ذهب .

● الرجل العظيم هو ذلك الذى يستطيع أن يجعل من أحلامه حقائق يعيشها الناس .

● فكرة الغد الأفضل هى السراب الضرورى للأنسان ، كى يعيش مواصلا السير فى صحراء الحياة البعيدة الآفاق . . .

● ان العالم الافضل موزع فى الواقع على مراحل حياتنا الفردية والاجتماعية .

● الأمم الناشئة مثل الطفل يشغلها الحاضر عن النظر إلى المستقبل ، فالحاضر هو الزمن الوحيد الذى يغرق فيه الأطفال .

● انه لمن اصعب الأمور ان يحكم الانسان حكما عادلا على تصرفات غيره ، لأن ذلك يستوجب خيالا وحكمة وحنكة ليضع نفسه فى عين ظروفه ، ويشعر بعين احساسه ، ويرى بعين إدراكه . . .

● ان روح الانصاف والعدل لا يمكن أن تحل فى جسد من الكبرياء والجهل .

● كل جيل يحكم على غيره بمقاييس الحلقة التى هو فيها ، دون أن يفطن الى اختلاف الجو عند الآخر . فمن يعيش فى حرارة الشباب يظن كل شىء حارا ، ومن يعيش فى برودة الشيخوخة يظن كل شىء بارداً . ولو انصف الجميع لاعترفوا بأن الحياة مناطق وأجواء .

● إذا عجز العقل عن حل مشكلة فلن يحلها غير الجنون .

● فى الدهر ساعة يرفرف فيها السلام وتكتمل الصحة ويصفو المزاج . . تلك هى ساعة الاتزان فى التفكير والتوازن فى القوى .

● الاعتدال . . . مامن صيدلية بشرية تستطيع أن تصنع هذا الدواء العجيب فى كل حين .

العامود الفقرى لشخصية الانسان هو سلسلة تجاريبه فى الحياة .

● كلمة الغرور هى الكفن الذى نطوى فيه قفزة الجرىء إذا سقط .

● الغرور بالنسبة الى العظيم فى الأفراد والدول ليس فى كل الأحوال مسألة خلقية ، بل مسألة حسابية ، الخطأ فيها يودى بالنجاح إلى المقبرة .

● مامن أحد يعرف سر التاريخ ، حتى ولا التاريخ نفسه . إنه يتذكر ما يريد وقتما يريد ، وهو مضطجع يدخن الأعوام .

● فليهضم الغد كل ما ابتلع من أمسه . يكفى أن دمه الجديد انما يجرى بثمرات ذلك الأمس المهضوم .

● يكفى أن ينهض رجل واحد . . رجل روح حقيقى ليقلب التاريخ .

● لابد فى جهاز الإنسانية من « محركات » الغريزة الى جانب « فرامل » الحكمة .

● إن الأمة الحية يحيا فيها أمواتها ، والأمة الميتة يموت فيها أحياؤها .

● لو تأملنا الطبائع وتتبعنا وسائل نشاطها ، لتبين لنا أحيانا انها تكاد تنقسم إلى فئتين : فئة تمتطى الحظ . وفئة تمتطى الصبر . . . وراكب الحظ يريد أن يمحو الزمن الذى بينه وبين الهدف . . وراكب الصبر يريد أن يستخدم الزمن فى الوصول إلى الهدف .

● يحتقر الناس الكلب بالرغم من وفائه وأمانته لأنه لايفترسهم .

● باتساع نطاق الحضارة أصبح من الضرورى للناس أن يتخذوا لهم آراء فى شئون السياسة والفكر والمجتمع كما يتخذون لهم سيارات وثلاجات وأجهزة للأذاعة . .

● أغلب الناس لا يستطيعون أن يصنعوا لأنفسهم رأيا ، فهم يستسهلون ارتداء الآراء التى تصنع لهم صنعاً .

● هناك ساسة مثاليون وساسة عمليون ، كما ان هناك علماء حيوان وحواة أفاعى .

● فى الثورات السياسية والاجتماعية ، الفرنسى فلاح والأنجليزى ملاح . . الأول يقلب الأرض بالمحراث ، والثانى يتحول مع الريح .

● الويل لأمة سلط على شعبها الأعداء الثلاثة . الجهل والفقر والمرض ، وعلى قادتها الأعداء الثلاثة : الرجل والبطر والغرض .

العظمة من البساطة بحيث يدعيها كل انسان ، ومن الارتفاع بحيث لا يبلغها كل انسان .

● بعض الناس يحبون الصداقة التى تسرهم أكثر من الصداقة التى يحترمونها .

● إثنان لهما أن يحضرا الولائم بغير دعوة : الطفيليون والعظماء : الاولون لأنهم أحقر من أن يدعوا ، والآخرون لأنهم أكبر من أن يدعوا .

فى المرأة والحب

● القلب هو نافورة الأحلام والآمال .

● قلب الإنسان هو الأعجوبة العظمى . . . أعجوبة موصدة أمام القدرة وأمام الحكمة .

● إن الحب لقدر صارم . . . يضرب ضربته حيث يريد هو ، لا حيث نريد نحن .

● الصداقة هى الوجه الآخر غير البراق للحب ، ولكنه الوجه الذى لا يصدأ أبدا .

● حرارة القلوب تذيب الذنوب .

● الحب يبتلع كل شىء حتى الصداقة وحتى الإيمان . . . لأنه هو نفسه إيمان أقوى من كل إيمان .

● ليس للنساء عمل فى الحياة غير الحب . أما حياة الرجال فهى حب العمل . . ومن هنا نشأ سوء التفاهم ! . .

● المرأة لا تستطيع أن تخلص لمبدأ ، ولكنها تستطيع أن تخلص لشخص .

● إذا تمكن حلم من امرأة وتمكنت هى منه ، فلن تتركه حتى يغدو حقيقة .

● المرأة لا تبصر فى المرآة وجهها الحقيقى ، بل الوجه الذى تريده هى لنفسها

● الزواج هو مقبرة الحب الملتهب .

● المرأة عندما تهتم برجل تستطيع أن تعرف عنه ما قد يجهله هو عن نفسه .

● من المؤلم للمرأة أن تضطر إلى الاستعاضة عن الحب بالصداقة ، وأن ترغم على قبول رجلها صديقاً لا عشيقاً .

● المرأة تستطيع أن تعيش مع الحب الميت لأنها تستطيع أن تضع على قبره فى كل يوم زهرة من دموع الذكرى .

● المرأة مثل القمر ، لاتشع ضوءامن داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتى إليها من شمس عقل الرجل .

● آه للمرأة ! إذا ابتليت بالجهل فهى مخلوق تافه . وإذا منحت الذكاء فهى مخلوق خطر .

● المرأة هى المرأة دائما سواء ألبست النقاب والخلخال ، أم الوسام وخوذة القتال .

● الخداع هو الأوكسيجين فى هواء كل امرأة ، فأن لم تجد من تخدعه خدعت نفسها .

● المرأة هى الزهرة المشرقة فى بستان وجودنا الآدمى ؛ زهرة لها نضارتها وعبيرها ، ولكن لها أيضا أشواكها .

● المرأة الجميلة عدو الرجل المفكر .

● الجنة لاتسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء .

● مجد المرأة الخالد هو فى أن القدر كتب على الرجل أن ينحنى ليطعم من راحتيها .

● المرأة فاكهة شهية ينخر فيها الدود .

● منذ فجر التاريخ والمرأة تتزين أى تخدع ، ولقد عرف الطلاء على وجه المرأة قبل أن يعرف على جدران الهياكل .

● لو فهمت البهائم من عاطفة الحب اكثر مما تفهم الآن لما ظلت بهائم دقيقة واحدة .

● خلقت المرأة لتشدنا إلى البهائم بيد ، وترفعنا إلى القديسين بالأخرى .

● المرأة هى المخلوق العجيب الذى يضم بين ذراعيه السماء والأرض .

● من الساقطات من تبدو فى رذيلتها أمام الناس وفى فضيلتها أمام الله ، ومن الحرائر من تبدو فى فضيلتها امام الناس وفى رذيلتها أمام الله .

● المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه . وما البيت أو المجتمع بدونها غير آنية بلا زهر وقارورة بلا عطر .

المرأة مخلوق تافه ، صنعت من ضلع تافه من أضلاع آدم ، وخرجت من الجنة وأخرجته بسبب تافه .

● الجمال هو العذر الوحيد الذى يغفر للمرأة كل تفاهتها وحماقتها .

● المرأة تصنع الثوب. ولكن الثوب أحيانا هو الذى يصنع المرأة .

● ما أعجب الحب ! . يخرج لنا سعادة من الشقاء ، وشقاء من السعادة .

● المرأة هى السجان الدائم لنا نحن الرجال ، تحبسنا بين جدران بطنها ونحن أجنة ، فاذا خرجنا إلى الحياة وقعنا بين سياج حجرها ونحن أطفال ، فاذا اجتزنا بالكبر تلك السياج تلقتنا أغلال ذراعيها فطوقت أعناقنا حتى الممات .

تم وضع الكتاب فى ١٤ يونيه ١٩٥٢

مؤلفات الحكيم

التى رجعنا إليها فى كتابة هذا البحث

أولا : كتب يغلب عليها الطابع الفكرى :

١ — تحت شمس الفكر (١٩٤٥)
٢ — من البرج العاجى (١٩٤١)
٣ — تحت المصباح الأخضر (١٩٤٢)
٤ — زهرة العمر (١٩٤٤)
٥ — حمارى قال لى (١٩٤٥)
٦ — فن الأدب (١٩٥٢)
٧ — سلطان الظلام (١٩٤٢)

ثانيا : كتب يغلب عليها طابع القصة القصيرة :

١ — تاريخ حياة معدة (١٩٥٢)
٢ — راقصة المعبد (١٩٤٠)
٣ — قصص توفيق الحكيم المجموعة الأولى والثانية (١٩٤٩)
٤ — عهد الشيطان (١٩٤٢)
٥ — شجرة الحكم (١٩٤٥)

ثالثا : قصص طويلة تخدم أغرضا اجتماعية وقومية واصلاحية :

١ — عودة الروح (فى جزئين) (١٩٣٣)
٢ — يوميات نائب فى الأرياف (١٩٣٨)
٣ — عصفور من الشرق (١٩٥١)
٤ — الرباط المقدس (١٩٤٤)
٥ — حمار الحكيم (١٩٤٠)

رابعا : مسرحيات :

(أ) تاريخية .

محمد (١٩٣٦)

(ب) اجتماعية وسياسية :

١ — مسرحيات الحكيم (فى جزئين) (١٩٣٧ — ١٩٣٧)
(ويشمل ثمانى مسرحيات)

٢ — مسرح المجتمع (١٩٥٠) (ويشمل احدى وعشرين مسرحية)

(ج) — مسرحيات أسطورية تبرز اتجاهات المؤلف الفكرية والانسانية:

١ — شهرزاد (١٩٣٤)
٢ — أهل الكهف (١٩٣٣)
٣ — براكسا (١٩٣٩)
٤ — بجماليون (١٩٤٤)
٥ — سليمان الحكيم (١٩٤٣)
٦ — الملك أوديب (١٩٤٨)

(خامسا) مؤلفات أخرى :

١ — نشيد الأنشاد (منظومة منشورة لنشيد الملك سليمان) (١٩٤٠)
٢ — أهل الفن .
٣ — القصر المسحور (بالاشتراك مع الدكتور طه حسين) (١٩٣٦)
٤ — مقالات نشرت فى الصحف .

فى المرأة والحب

● القلب هو نافورة الأحلام والآمال .

● قلب الإنسان هو الأعجوبة العظمى . . . أعجوبة موصدة أمام القدرة وأمام الحكمة .

● إن الحب لقدر صارم . . . يضرب ضربته حيث يريد هو ، لا حيث نريد نحن .

● الصداقة هي الوجه الآخر غير البراق للحب، ولكنه الوجه الذى لا يصدأ أبدا .

● حرارة القلوب تذيب الذنوب .

● الحب يبتلع كل شيء حتى الصداقة وحتى الإيمان . . . لأنه هو نفسه إيمان أقوى من كل إيمان .

● ليس للنساء عمل فى الحياة غير الحب . أما حياة الرجال فهى حب العمل . . ومن هنا نشأ سوء التفاهم ! . .

● المرأة لا تستطيع أن تخلص لمبدأ، ولكنها تستطيع أن تخلص لشخص .

● إذا تمكن حلم من امرأة وتمكنت هى منه ، فلن تتركه حتى يغدو حقيقة .

● المرأة لا تبصر فى المرآة وجهها الحقيقى ، بل الوجه الذى تريده هى لنفسها

● الزواج هو مقبرة الحب الملتهب .

● المرأة عندما تهتم برجل تستطيع أن تعرف عنه ما قد يجهله هو عن نفسه .

● من المؤلم للمرأة أن تضطر إلى الاستعاضة عن الحب بالصداقة ، وأن ترغم على قبول رجلها صديقاً لا عشيقاً .

● المرأة تستطيع أن تعيش مع الحب الميت لأنها تستطيع أن تضع على قبره فى كل يوم زهرة من دموع الذكرى .

● المرأة مثل القمر ، لاتشع ضوءامن داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتى إليها من شمس عقل الرجل .

● آه للمرأة ! إذا ابتليت بالجهل فهى مخلوق تافه . وإذا منحت الذكاء فهى مخلوق خطر .

● المرأة هى المرأة دائما سواء ألبست النقاب والخلخال ، أم الوسام وخوذة القتال .

● الخداع هو الأوكسيجين فى هواء كل امرأة ، فأن لم تجد من تخدعه خدعت نفسها .

● المرأة هى الزهرة المشرقة فى بستان وجودنا الآدمى؛ زهرة لها نضارتها وعبيرها ، ولكن لها أيضا أشواكها .

● المرأة الجميلة عدو الرجل المفكر .

● الجنة لاتسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء .

● مجد المرأة الخالد هو فى أن القدر كتب على الرجل أن ينحنى ليطعم من راحتيها .

● المرأة فاكهة شهية ينخر فيها الدود .

● منذ فجر التاريخ والمرأة تتزين أى تخدع ، ولقد عرف الطلاء على وجه المرأة قبل أن يعرف على جدران الهياكل .

● لو فهمت البهائم من عاطفة الحب اكثر مما تفهم الآن لما ظلت بهائم دقيقة واحدة .

● خلقت المرأة لتشدنا إلى البهائم بيد ، وترفعنا إلى القديسين بالأخرى .

● المرأة هى المخلوق العجيب الذى يضم بين ذراعيه السماء والأرض .

● من الساقطات من تبدو فى رذيلتها أمام الناس وفى فضيلتها أمام الله ، ومن الحرائر من تبدو فى فضيلتها امام الناس وفى رذيلتها أمام الله .

● المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه . وما البيت أو المجتمع بدونها غير آنية بلا زهر وقارورة بلا عطر .

المرأة مخلوق تافه ، صنعت من ضلع تافه من أضلاع آدم ، وخرجت من الجنة وأخرجته بسبب تافه .

● الجمال هو العذر الوحيد الذى يغفر للمرأة كل تفاهتها وحماقتها .

● المرأة تصنع الثوب. ولكن الثوب أحيانا هو الذى يصنع المرأة .

● ما أعجب الحب ! . يخرج لنا سعادة من الشقاء ، وشقاء من السعادة .

● المرأة هى السجان الدائم لنا نحن الرجال ، تحبسنا بين جدران بطنها ونحن أجنة . فاذا خرجنا إلى الحياة وقعنا بين سياج حجرها ونحن أطفال ، فاذا اجتزنا بالكبر تلك السياج تلقتنا أغلال ذراعيها فطوقت أعناقنا حتى الممات .

تم وضع الكتاب فى ١٤ يونيه ١٩٥٢

مؤلفات الحكيم

التى رجعنا إليها فى كتابة هذا البحث

أولا : كتب يغلب عليها الطابع الفكرى :

١ — تحت شمس الفكر (١٩٤٥)

٢ — من البرج العاجى (١٩٤١)

٣ — تحت المصباح الأخضر (١٩٤٢)

٤ — زهرة العمر (١٩٤٤)

٥ — حمارى قال لى (١٩٤٥)

٦ — فن الأدب (١٩٥٢)

٧ — سلطان الظلام (١٩٤٢)

ثانيا : كتب يغلب عليها طابع القصة القصيرة :

١ — تاريخ حياة معدة (١٩٥٢)

٢ — راقصة المعبد (١٩٤٠)

٣ — قصص توفيق الحكيم المجموعة الأولى والثانية (١٩٤٩)

٤ — عهد الشيطان (١٩٤٢)

٥ — شجرة الحكم (١٩٤٥)

ثالثا : قصص طويلة تخدم أغرضا اجتماعية وقومية واصلاحية :

١ — عودة الروح (فى جزئين) (١٩٣٣)

٢ — يوميات نائب فى الأرياف (١٩٣٨)

٣ — عصفور من الشرق (١٩٥١)

٤ — الرباط المقدس (١٩٤٤)

٥ — حمار الحكيم (١٩٤٠)

رابعا : مسرحيات :

(أ) تاريخية .

محمد (١٩٣٦)

(ب) اجتماعية وسياسية :

١ — مسرحيات الحكيم (فى جزئين) (١٩٣٧ — ١٩٣٧)
(ويشمل ثمانى مسرحيات)

٢ — مسرح المجتمع (١٩٥٠) (ويشمل احدى وعشرين مسرحية)

(ج) — مسرحيات أسطورية تبرز اتجاهات المؤلف الفكرية والانسانية:

١ — شهرزاد (١٩٣٤)
٢ — أهل الكهف (١٩٣٣)
٣ — براكسا (١٩٣٩)
٤ — بجماليون (١٩٤٤)
٥ — سليمان الحكيم (١٩٤٣)
٦ — الملك أوديب (١٩٤٨)

(خامسا) مؤلفات أخرى :

١ — نشيد الأنشاد (منظومة منشورة لنشيد الملك سليمان) (١٩٤٠)
٢ — أهل الفن .
٣ — القصر المسحور (بالاشتراك مع الدكتور طه حسين) (١٩٣٦)
٤ — مقالات نشرت فى الصحف .

فهرس

ص	
٣	الاهداء
٤	تعريف بالكتاب للمؤلف
٥	مقدمة للدكتور مهدى علام
١٢	حركة التجديد فى الأدب العربى الحديث
٣٠	عصره
٤٧	مشكلة الفكر
٦٣	فى المجتمع
١٠٠	رائد الحوار
١١٩	مختارات من مأثوراته
١٢٠	فى الإنسانية والمثل العليا
١٣٠	فى الفن والأدب
١٤٠	فى السياسه
١٤٥	فى المرأة والحب
١٤٩	مؤلفات الحكيم التى رجع إليها المؤلف

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072539206

يطلب من
مكتبة الآداب بالجماميز والمكاتب الشهيرة

ص
٢٥